الجزء الثاني من الكتاب

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
4 NOV 1972
Tel. 260458

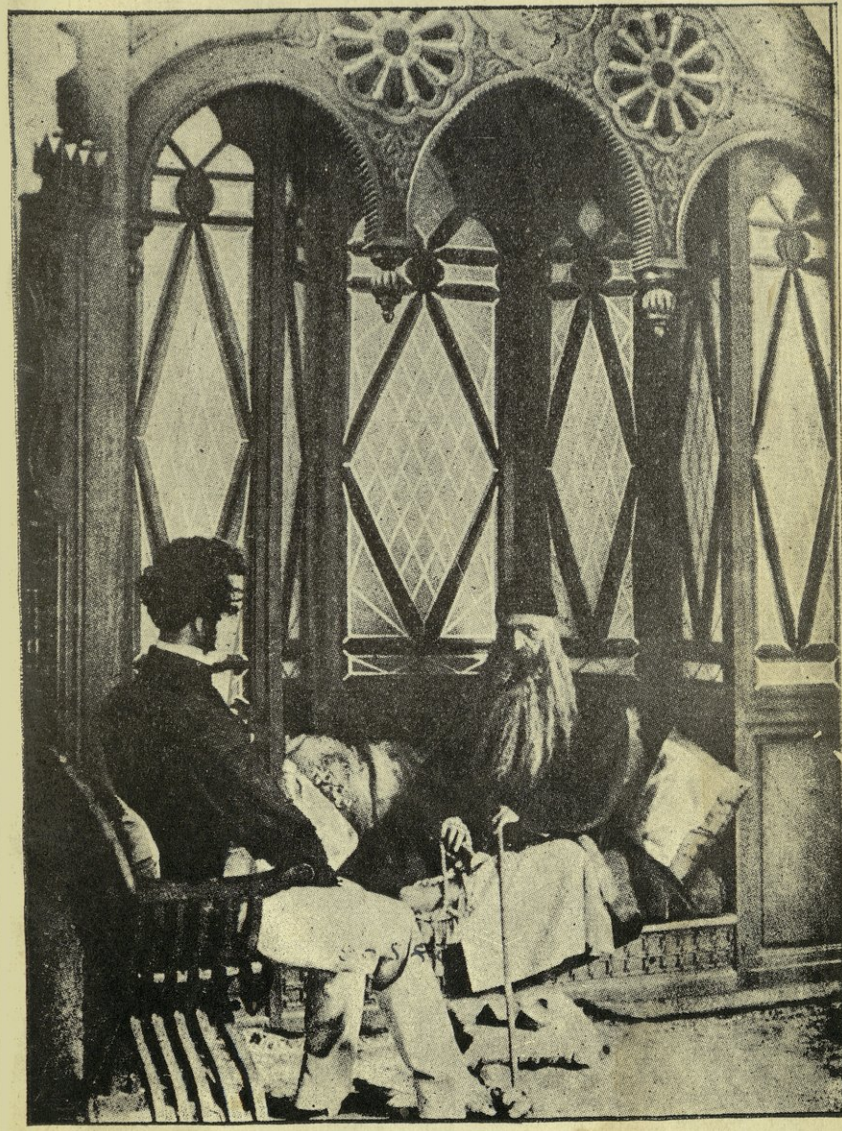

الأمير بشير والشاعر الفرنسوى الشهير « لامارتين »

843
B721pA

أميرة بابلية

لدى الدروز

تأليف

پول هنرى بوردو

وتعريب

ميشيل سليم بكير

58209

المطبعة العصرية
بشارع الخليج الناصرى رقم ٦ بالفجالة بمصر
تليفون نمرة ٥٩٧٥٦

LIBRARY
OF BEIRUT

مقدمة المعرب

أنشأنا منذ عهد ليس ببعيد ، مقالاً في المقتطف [1] ، أتينا فيه على وصف مصنفات كاتب عظيم عن سورية : هو السيد هنري بوردو ، عضو المجمع الافرنسي . وهي مآثر رائعة لها جانب عظيم من الجمال والقيمة . ولا نخال في شرقنا من يجهل روايته الخالدة « جميلة تحت ظلال الارز » ، التي أثارت حين نشرها ، عاصفة من الثناء والمدح ، كما أثارت ضجيجاً من الانتقاد المر . ولا غرو فلكلٍّ وجهة نظر خاص في هذا الكون . والقصة تحمل في فجواتها مادة كافية حائة للقرائح . وبينها المطرىء والصاخب . وخلاصة القول أن كتب المسيو بوردو ، عن سورية ولبنان ، جديرة بكل حمد واطراء .

واليوم ها نحن أولاء نقدم الى أبناء العربية ، تعريب

---

(١) مقالنا : سورية ولبنان في نظر الغرب — المقتطف : يونيو ويوليو ١٩٢٩ .

كتيب قيم ، بقلم كريمة الكاتب المذكور السيدة پول هنرى بوردو (Paule Henry-Bordeaux) التى اقتفت آثاره الغرّ ، « ومن شابه أباه فما ظلم » . وليس هو أول أثر من يراعتها الكريمة ، عن المشرق ، بل قد نشرت عدة كتب جليلة عن سورية ولبنان . وقد وافت هذه الديار صحبة والدها الكريم فى ربيع ١٩٢٢ ، وطافتها سماء وأرضاً . وعادت وفى حقيبتها معلومات وفوائد فريدة جمة . وما لبثت ان اتحفتنا بمجلد صغير يحوى رحلتها الى تدمر ، عاصمة الزباء ، Sur la route de Palmyre ولم تنقض ثلثة أعوام ، حتى كانت قد أتبعته بمجلدين ضخمين ، عن المغامرة المخبولة الليدى استرستانهوب Lady Hester Stanhope en Orient ، أقل مايقال فيهما انهما على جانب عظيم من الأهمية ، لتاريخ سورية ، فى الحقبة الاولى من القرن المنصرم . وما عتمت أيضاً أن أبرزت عام ١٩٢٨ م الكتيب الذى نحن بصدده . وقد نزعت فى جميع هذه الكتب نزعة جادة ، كلها اخلاص ونية صادقة . وانك تجد فى جميع

ما سطرته ، يد الاعتناء ، والرزانة ، والحكم النزيه . وحسبها في ذلك مدعاة لحسن الظن ، والحمد الجزيل .

أما موضوع الكتاب فما هو غير خلاصة أريبة ، لحياة أميرة عراقية ، وفدت الى لبنان ، في عهد الامير بشير الكبير ، وعاشت به ردحاً من الزمن في ظل مولاه القدير . ولذا دعت الكتاب : « اميرة بابلية لدى الدروز » :

Une Princesse Babylonienne Chez les Druzes.

وليس الكتاب في حد ذاته مقصوراً على هذا . فالدافع الأصيل الذي حدا بنا الى تعريبه ، غرابة حياة فتاة شرقية ، نظرت منذ قرن الى فقر بنات جنسها الأدبي ، فعملت على رقيهن ، وتهذيب حالهن ، ورفع مستواهن العلمي ، بنية صادقة ، وعزيمة لا تفنى . لكن الدهر الخؤون كان حؤولاً دون الجهود ، فكبا جوادها في هذا الميدان الضيق آنئذ ، وافترست آمالها الفتية ، وحوش التعصب ، والرجعية ، والجهالة الكاسرة ....

ثارت مارية — وهـذا اسمها — ذات الفـكر الحر ، والعقل النـير ، وأبى عليها ضميرها الحى ، أن تشهد المرأة تسام الخسف والهوان ، وينظر اليها كسقط المتاع — أو كما يعتقد فلاحو النصيرية انهـا مخلوق دون روح ، أو كما يرى الكثيرون حتى اليوم ، انها متعه الرجل يهش لها متى شاء ، ويغفل عنها متى شاء — وفى عهدها كان الرجل المسيحى فى سورية يستنكف مسايرة أخته بل امرأته فى السوق أو فى الطرق ، اتقاء استنكار القوم . وكان بعضهم يرى من العار أن يؤاكل زوجه ، أو احدى نساء بيتة على مائدة واحدة . وفى بعض المدن كغزة وعكا مثلا ، كانت الفتاة تستدرىء وراء الباب اذا طرق طارق ، وقد أعوجت فاها ، وحشرت فيه منديلا يحشرج صوتهـا ، فتتقلقل نبراتها فى مخرجها ، وذلك ليخال سائلها أنها عجوز شمطاء !! ولست أريد أن أعدد لك الأمثلة ، التى تكفل باستنزاف الكتاب كله ، وانك لا تجهل الجليل منها . فاذا كانت هذه هى الحالة فى سورية وعلى السواحل (اللهم باستثناء لبنان الذى أفلت من كثير من

هذه العادات الشائنة) ، فكيف بها فى الداخلية فى العراق، حيث كان يرتع الجهل ، وينعق بوم التعصب . فهاجت وماجت هذه ، وماذا تجدى مقاومة التيار الجارف ؟ فلم تلبث ان أخفقت شر إخفاق :

على المرء أن يسعى بمقدار جهده
وليس عليه أن تتم المطالب

هذه ناحية الكتاب الفذة الغريبة ، وهى حلقة مفقودة من سلسلة تاريخ الشرق النسوى، جديرة باطلاع الشرقيات العاملات عليها ، فيبصرن ذلك الشهاب المتناثر ، الذى لمع فى فضاء المشرق برهة ، ثم خبا ضوؤه الى الأبد ! وهن خليقات بألا يبخسنها حقها ، بل أن يرمقنها بعين الاجلال والاعزاز ؛ اذ هى أولى العاملات ، ولا مراء ، للنهضة النسائية الشرقية ، وكفى بذلك فخراً لها .

ولو كان النساء كما ذكرنا
لفضلت النساء على الرجال !

***

لسنا نود أن نختم هذه المقدمة ، دون اشارة الى منهجنا في التعريب . وهو الامانة التامة في النقل . فلسنا نقتطع أسطراً ، أو نحرف فقرةً ، مهما كان الداعي . على أننا قد نتصرف ، ولا يخفى ذلك عليك ، في بعض العبارات ، ناهجين مناهج العربية ، في عدم إفراط في المطلب والمعنى . فلا نغفل شيئاً ، حتى الاوصاف التي يتعشقها الغربيون (خاصة في مثل هذا ، حيث تطلب المؤلفة الصبغة المحلية) فنذكرها دون تعديل . فمبدأنا نطبقه دواماً ، وهو المحافظة على الاصل جهد المستطاع ، بما حوى من لواذع ، وضم من جوارح ، خاصة اذا كان على رائحة من الحقيقة عظيمة . ونتحاشى قوانا عن تلك الطرق الشائنة ، التي يتبعها المعربون فيهوون في مزالقها ، اذ يقتطعون جملاً شتى ، لا توافق في عرفهم مزاج القراء الشرقيين . ولا سيما ان وجدوا بها قرصاً ولذعاً للعادات الشرقية . وقد ألمحنا الى ذلك في مقالنا السالف الذكر . وعليه فلسنا نبالي برضاء الرجعيين ، ولا بغضبهم ،

وسواء لدينا تهليلهم او سخطهم ، تكبيرهم او حقدهم ، ما دمنا لا نتخذ لهم وزناً ، ولا نعيرهم اهتمامنا .

وعليه فنحن نقدم للقراء هذا الكتيب راجين أن يقع منهم موقعاً حسناً ، وأن يحملوه على نية الاخلاص ، وحسبنا هذا جزاءً ؟

مايو سنة ١٩٣١ ميشيل سليم كبير

حاشية : اطلع على هذا الكتاب الاستاذ الفاضل مصطفى افندى جواد ، وأمدنا فيه بمعلومات وافية ، جديرة بالذكر والشكران .

اغسطس سنة ١٩٣١ م . س . ك .

بيروت : ٣٠ مايو ١٩٢٢ م

غداً نفارق سورية ، وذلك بعد شهرين صرفناهما فيها ، تأملنا فى خلالها مشاهد جمة ، ورقدنا تحت سموات عدة ، وطوينا طرقاً ومضائق كثيرة ، وتنازعتنا مؤثرات عديدة ، حتى لست أدرى أأرجو الوقوف لأحفر الصور الشاردة . فقد « شبعت فتنة » حتى أخال عينىّ ، عاجزتين عن تأمل الوان مستجدة ، وكذلك أذنىّ عن التقاط نغمات جديدة .

لست أدرى أى المناظر التى هى تترى أمامى أفضل . فهنالك بلدان عجيبة فى قلب البيداء ، وعلى مسائل المياه ، كدمشق ، وتدمر ، وحلب ، وحماة ، وطرابلس الشهباء ،

ثم وديان لبنان الخضر العذبة ، وقلاع الصليبيين الشامخة على ذروات الشعاب . . . . لست أدرى أيها أختار : أذلك الاستقبال فى تدمر ، والشمس تحنو نحو المغيب ، معانقة مهدمات هياكل البلدة الخرافية المدفونة فى الصحراء ، وأشعتها تلثم فى احتضارها تلك الخرائب فى شبه حريقة عظيمة ؟ أم مشارفتنا قلعة الحصن ، ورقينا الدرج على صهوات الجياد ، فى عجيج من الرفقة ، بين صلصلة السنابك على البلاط ، وقعقعة المهاميز ، وصهيل الافراس المتدافعة تحت العقود ، يتداولنا جزر ومدّ الصراخ والتهليل ؟ ان لكل يوم مشهداً يفوق سابقه روعة !

بالامس أجالنا فى لبنان الكولونيل دينان Denain ، قائد قوات سوريا الجوية ، وقادنا الى حمانا التائهة فى ميدان جبلى فسيح ، حيث النزل الذى هبطه لامرتين ، يملكه اليوم درزيان يتشابهان كثيراً بجبتيهما الحالكتين ، وبعمامتيهما الناصعتين ، وقد أرقيانا شرفة تنوء بتعاريش الياسمين والورود ، تشرف من ناحية على البحر ، ومن أخرى على مسيل

هدير . وعلى جانبي الباب أسدان صخريان ، فشجرة تظلل الأجار كأنها تقيه . ويسود هنالك هدوء وسكون ، وتشذو روائح عطرة . ثم اقتنصنا برمانا من خلال غابات الصنوبر ، والطريق المطل المؤدى الى الساحل . وشاهدنا الليل يصعد من البحر ، وأنوار بيروت الأولى تلمع .

وفى هذا الصباح ، نحو الساعة التاسعة ، قدمت السيدة ترابو ، عقيلة حاكم لبنان ، تصحبها فتاتاها الفاتنتان ، تدعونا للغداء فى قصر بيت الدين ، مقر الحاكم الصيفى . وسلكنا طريق صيدا بين حقول الزيتون والغلال الصفر على شاطىء البحر ، ثم عكفنا يساراً فى وادى نهر الدامور ، حيث المنحنيات ضيقة ، والعطفات عديدة . فانتعشت أبصارنا بمناظر المياه ، والاشجار ، والمزارع الجميلة ، بعد ان تعودت جفاوة الصحراء ، وحدور لبنان الصغير الكاسية . فالرتم الذهبية فى أينع ازدهارها ، تتكدس على طول المسيل . ووجلنا بعد اجتيازنا قرية الدامور ، واديا آخر ، ينتهى لدى قرية دير القمر القانية ، حيث نقب موريس بارس ، عبثاً

عام ١٩١٤ ، عن آثار اللادى ستاتهب الغامضة ، هذه « النبيلة العاملة » ، كما يدعوها ، ولم يتوصل لنتيجة ما من الأعيان الذين لا يهيمون بغير وادى السياسة .[1] غير أن الاستقراء لبلاد المشرق ، كان يجذبه أبداً ، مبتعداً به نحو نهر أدونيس ، وقلاع الحشاشين .

* * *

تفصل هوّة عميقة ، بيت الدين عن دير القمر . ومن ناحية منها لاح فجأة قصر الأمير بأسواره الشم ، وسرايه الكبيرة المربعة ذات السطوح المنبسطة ، وحدائق الشربين ، وأدغال الأشجار المزهرة . ولم تلبث ان اختفت عن الأنظار لدى عطفة فى الطريق ، كى تعود بعد هنيهة ، فتبدو للعيان ، والى الاختفاء جديداً . فالجبل يناوح القصر . وأخيراً نشب به النظر ، وتشبث ، ولم يتخل عنه . فياله من موقف ساحر ! لقد تخيلتنى شبعت مناظر ! . . . فمن ناحية

---

(١) اى والله ، هذه مصيبتنا . وكل لبناني « سياسى » حاذق ، منذ ولادته ! ! . (م . س . ك)

الوادى تهدل البساتين وتتسلق الغياض الزاهية بألوانها ، الخضر ، والحمر ، والوردية ، والبيض . ولو أني أدير بصرى لشهدت هنالك بين تلين مستديرين ، البحر المتوهج فى أضواء الشمس . . . ويرتفع القصر كتلك الضياع القائمة على شواطىء نهر الرين . ولكنه ضيعة ضحوك ، متبرجة لمباهج الصيف الابدى .

وزلقت السيارة تخترق الممر المؤدى الى فناء الدار الاول ، الذى تطل عليه مرابض الجياد ، وتزينه نافورة تصل مياهها السقف ، حيث تحولنا ، وولجنا الفناء التالى ، ذا الاقواس الموشاة بعقود الزهر ، واجهنا فيه الجزء الاعظم للقصر ، بواجهته الفائضة وشياً وسناء باهراً ، بالقاشانى ، والرخام الوردى والاسود الالوان . والآن فهانحن ازاء باب الماضى ، فمن يفتحه لنا ؟ . على هذه الحال فنحن سعداء ان يكن برفقتنا الكبتن ب . . وهو من أغرب الشخصيات التى صادفناها فى رحلتنا . فهو ذو شعور ثاقب بالحاليات ، متضلع من حوادث الماضى ، وذهنه مشحوذ بالمطالعات

الجمة ، كما أنه يتمتع فى جيش الشرق ، بشهرة فريدة جداً . ويقول عنه زملاؤه : « ان ب. رجل ملكى ، لبث سهواً فى الجيش » ، ولكن لا يعلم أينقمون عليه ، أم يحسدونه على سخرياته . ولقد قرأ الكبتن ب ، كل شىء ما عدا الحوليات ، فهو يخلو حقاً من الروح العسكرية . وخلاصة القول ، فهو رفيق سفر مستحب جداً ، ثم انه يفيض هياماً لبيت الدين ، ويعد كل زيارة للقصر بدونه ، اهانة موجهة اليه شخصياً . ولذا فليس يسعى أحد فى جرح مشاعر هذا الدليل الكريم .

بواسطته اذاً ستبعث حياة الساحات الزاهرة بالورود ، فترمى الغلمان الجريد ، وتعقل الجمال ، وتكدف الخيل ، وتزدحم حول الفسقيات ، جموع الدروز والموارنة والمتاولة . فالكبتن ب « مُحيٍ » غريب . فهو يحفظ « الرحلة الى الشرق » عن ظهر قلب . وقد أشار لنا من احدى السطوح ، ذات القوائم الدقيقة ، الى نوافذ زجاجية مربعة ، هي : غرفة لامرتين .

وانى فى هذه الحالة لأرغب عن هذه المناظر المتطاحنة الطيقان المقفرة وأنين النافورات فقط. لأن فى روح العزلة والسكون والغموض وفاقاً لهذا الزخرف الروائى.

يحوط الفناء الثالث، الأصغر من الآخرين والمزدهر بالزهور، رواق عربى الزخرف [1]، يزدان بالرسوم الجميلة، الأنيقة، وحواليه تمتد المقاصير، التى يسكنها القومندان ترابو وذووه. وقد لحظت قاعة فرش بساطها بالفسيفساء، وبها جرن من المرمر. واذ رفعت باصرتى الى أعلى، لم أتمكن أن أتحاشى عن صرخة دهش، لأن النقش هو نخفخة الذهب والخضرة. فالذهب البسيط، والذهب الاحمر، والذهب الاصفر، ثم الخضرة الغليظة المدهامّة، والخضرة الضاربة للزرقة، والخضرة كلون حجر اليشب، فالخضرة الكدرة ترتع فى افراط من النقوش الزهرية، والوشى النباتى، والتعاريش. وهى كنمط الوان جامع عمرو ذاتها. وأدرك الكبتن حركتى، فقال:

---

(١) انظر التعليق الوارد فى ذيل الكتاب (م. س.)

قصر الأمير بشير فى بيت الدين

— اليس حقاً أن بشيراً كان ذا ذوق دقيق ؟ انه لم يتردد في بتر يدى الفنان ، مبدع هذا السقف ، كى يحول دون انشائه مثيلاً له .

انه ولع بالفن خارق العادة .

وهبطنا درجاً خشبية الى الحدائق ، التى تخترقها مياه خريرة ، وينجم فيها شجر السرو الحزين ، بين دائرة الزيزفون والطلح ، ويعبق الهواء بالأريج . وكان لهذا الصبح حرارة أشد أيام القيظ عندنا .

ورف فوق القصر سرب من الحجلان ، فلم يفت ملاحظة هذا الكبتن الهائل الذى لم تفته فائتة . فاستحال عليه أن يمسك عن التحدث الينا عن احدى وقائع صيد الأمير بشير ، كأنه حضرها عياناً . وقد جلسنا فى الظليل ساكنات ، والنسيم يهب عليلاً . وكلنا آذان ناصتة اليه :—

— انكن تبصرن هذه الشاهقات وراء دير القمر ؟ فان بشيراً اذا ما طلب الصيد فى شهر كانون الثانى ، وبالاكثر

فى شهر شباط ، سارت لدى انبثاق الفجر سخرة مؤلفة من اثنى عشر الف فلاح ، يطلبون القمم ، ويضجون ضجيجاً حاداً لطرد الطير ويرمون الحجارة نحو الجهة مطلب الصيد ، حيث الأمير يدخن ، وعلى زنده بازه [1] . يحوطه رهط من أمراء الشهابيين و « المقاطعجية » الموالين ، وأولاده ، وحاشيته ، وقواده . والغلمان تحمل البزاة على مجاثمها ، ثم خمسون فارساً على أهبة الوثوب ، وكلاب الصيد تصم هريراً ، فاذا ما لمح أول حجل أثار اليه بازه . فيسمو هذا نحو السماء ، ثم يعتدل ، ثم يحلق فيرسم عدة دوائر ، ويبصر الطير فيهبط عليه كانطلاق القذيفة . وفى الحال يهمز البشير على فرسه الصهباء — وهى الفرس التى راهن انه يشرب فنجان القهوة طافحاً على صهوتها . وهى فى أقصى سرعتها . دون أن يريق نقطة واحدة . وبالفعل فاز بالرهان ، فان عدوها كان ممتازاً بالسرعة

---

(١) كان أحب باز لدى المولى يدعى « كاسب » وقد اقيم له نصب ، واشتهر بقصيدة المعلم بطرس كرامة ، التى قالها فيه ، والتى مطلعها :

« تلألأ البشر وانجلت الغياهب . . . » م . س . ك .

واللين والرقة — وتتلوه فى المؤخرة الصافنات العربية الجميلة ، تسبح أعرافها فوق الدغل ، فتخترق المزارع فى حماسة وسرعة وتجمع ، وتثب من فوق السياجات ، وتخرب البساتين ، وتتوهج أشعة الشمس على وذائل وخرز السروج ، كما تعدو كاللهب ، فوق التلال والحقول ، ملابس الأمراء المزركشه ، وعباءات الشيوخ الحمر ، والخضر ، والبنفسجية . ويمتلىء الجبل بترجيعات الصدى ، من نباح الكلاب ، وصراخ المطاردين ، وانطلاقات البنادق . ويخلصون الحجل من نواشب الباز ، وقد التقم مخه .

واذا ما انتهى النهار تراكم الصيد ، فيقدمه البشير الى ضيوفه ، ويفرقه على رجاله . ولا تقام حفلات القنص الملكية هذه ، عدا مرة أو مرتين فى كل شتاء . ولا يقفلون الى ذات البقعة ، الا مرة كل خمسة أعوام . ولولا ذلك لما بقى حجل واحد فى لبنان .... وبعد ذلك تعلن حدثنى عن حفلات الصيد فى شانتيلى Chantilly ! .

ثم قادنا من جهة الجبل الى حديقة أخرى تزهو

باشجار الصنوبر الحلبي الأصل ، وأشجار الرمان الزاهرة ، حيث توجد ستة صيوانات مزوقة بأجران المرمر الوردى ، والفسيفساء الرقيقة ، والفسقيات ، والرواقات المقببة بالزجاج ، وهى تقوم كقاعات خلوة . وبدأ الكبتن الشرح باسماً : —

— تأكدن أنه فى هذا المكان ، كانت نساء الأمير يتذوقن السكريات ، وهن يتفاكهن الحديث . وقد كان أمام هذا الفسطاط فيما مضى ، فوارة فى جرن من الرخام الأبيض ، تسبح فيه الأسماك الذهبية اللون ، وحول هذا الحوض دائرة من التماثيل ، تنبعث منها نغمات شجية جداً ، تنشىء عن نظام آلى مدهش تديره المياه .

— اذن كى يكمل هذا المشهد ، وجب أن تكن الأميرات جميلات ؟

— انهنّ لكذلك يا آنسات ، فلا تشكنّ أبداً . فخليلة الأمير تدعى ، حسنى جهان ، « أى جمال العالم » . فماذا تبغين زيادة ؟ ثم تمر أمامى على الأثر هذه الأميرة البابلية

مارية ترازية أسمر — التى خلفت عن الحياة فى بيت الدين فى القرن التاسع عشر ، صورة فائقة الغرابة — ثم تتلو العربيات بأوجههنّ المستطيلة ، والعيون الكبيرة الموسعة بالكحل ، يتوشحن بعراقيات حلب المخرمة ، ويلبسن كبراناً قصيراً ، ويزججن خنجراً ، ثم الكرجيات (الجورجيات) بألوانهن الوردية ، فالدرزيات الغريبات بعيونهن الزرق . . . .

فضحكنا واتهمنا الكبتن بمعرفة أميرات بيت الدين ، اكثر مما يعرفهن سوريات بيروت . ثم عكفنا نسأله عن مارية ترازية الاسمر ، التى حازت الشرف أن تذكر فى هذه القائمة على حدة . فوعدنا أن يعرنا يوميات هذه الاميرة ، التى برزت بالانجليزية فى لندن نحو سنة ١٨٤٠[1] ، وقد أسعده الحظ باكتشافها فى احدى الايام لدى أحد باعة العتقيات .

ومد سماط الغذاء فى حديقة النساء ، اللائى كن يرقبن منها طريق دير القمر ، ويسرحن البصر وهن بمنعزل عن

---

(١) ظهرت هذه اليوميات سنة ١٨٤٤ . كما سيجىء بك فى الفصل الاخير من هذا الكتاب . ولعل هذه هنا هفوة مطبعية . م . س . ك

الانظار . وكان نسيم لبنان يهب عليلاً ، حينما بدأنا بالتهام الدجاجة المبردة. صامتات ، غير أننا ما لبثنا ان افتتحنا الحديث فجأة ، وانهالت الاستيضاحات على هذا السيء الحظ ب... حتى أغرقناه بها . وما كان يسمع آنئذ غير كلمة « درزى » وكل يخبط فى اشتقاقها .

— أحقيقة ان الدروز من سلالة الكونت دى درو Comte de Dreux ، الذى نيط به الدفاع عن بيت لحم المحاصرة بالسراسين ، والذى جالد مدى أربعين عاماً عن قلعته جبل الفريديس ؟

— لا ، فقد قدم الدروز من مصر

— أم من بلاد فارس

— ولم لا يكونون من الهند ؟

وكان الكبتن قد فاز بالتقام قطعة الدجاجة ، فالتفت نحو الفتيات حانقاً :—

— تتكلمن على الدروز ، وانى أشهد أنكن لا تعرفن قط الحاكم بأمر الله ، الملقب بنيرون المسلم ؟

فاضطررنا للاقرار بجهلنا. وتابع :— أو على الاقل ببرقة الدجال[1] ذى القناع الذهبى ؟

— ولا هذا . . .

فزمجر الكبتن رافعاً ناظريه الى السماء: وحمزة الفارس ؟.. لا ؟ اذاً ماذا تدرسكن المعلمات فى كلياتكن ؟ يجب أن تعتقدن يا آنسات مع فولني Volney أن الدروز أتوا من مصر . فقد ولي الخلافة فى القاهرة عام ٣٨٦ هجرى ، الحاكم بأمر الله ، الذى سندعوه بيننا بالحاكم . وكان يبشر بالمذهب الاسماعيلى ، الذى أذاعه القرامطة فى بلاد العرب ، وجلبه الى مصر المغامر عبيد الله ، مؤسس السلالة الفاطمية . ولكن مالنا وللفاطميين . فالاسماعيلية يؤمنون أن النفس والعقل

---

(١) لم يكن اسمه برقة بل عطاء ، وما برقة الا اسم قرية فى ايران . وقد وجدنا الاستاذ مصطفى جواد ، قد عاق على هذه ، بالآتي :—

« هو عطاء المقنع الخراسانى الحلولى الذى اتخذ لنفسه وجها من الذهب فلم ينزعه قط ، لئلا يطلع الناس على وجهه المشوه ، وكان يدعى أن الله تعالى حل فى نفسه ، بالانتقال والمناسخة ، والمشهور انه كان بقلعة سنام من رستاق « كش » كما فى الوفيات لابن خلكان . وبرقة هذه من قرى « قم » من نواحي الجبل بايران ، كما فى معجم البلدان » م . س . ك.

اللذين بواسطتهما كوّن الله العالم ، تقمصتا في سلسلة من الأنبياء كموسى ، ويسوع ، ومحمد . ثم في رسلهم من بعدهم كهارون والقديس بطرس ، وعلى . وانتقلت فضائل الأخير الى الأئمة . ولكن معذرة لهذه التوطئة العسيرة ! غير أن الحاكم بعد ان سلك بعض سبل التسامح والرزانة ، أبدى علائم ساطعة لجنون ديني . هذا ان لم تكن تدابير تدجيلية . فقد أذاع ان الله حلّ فيه ، وانه ، أي الحاكم ، هو هدف هذا الحلول الخارق ، مما يحول صراحة دون البحث . ولم يلبث أن أنشأ مضابط عامة ، ليوقعها أولئك الذين يؤمنون بألوهيته . وبالفعل أقرّ هذه المهزأة ، ستة عشر الف شخص . وقد شددت عزيمته هذه الموافقة المضحكة . حتى أنه تواً لم يضع حداً لتطرفاته ، تاركاً شعره ينمو ، وأظافره تطول ، ساعياً الى التلذذ الشيطاني . بمهاجمة العوائد والسنن الشدّى مسالمة ، والتقاليد الراسخي قدماً . مجولاً ليلاً في شوارع القاهرة تارةً مضيئة ومائجة كرائعة النهار ، وتارة غاسقة صامتة ، كيفما راق جنونه . »

« وفجأة هاجت النساء سخيمته (١) ، فمنعهن من مبارحة مساكنهن ، وحظر على الاساكيف ، عمل نعال لهن بوعيد الموت . وأمر أن تقدم لهن الأطعمة على مناخس طويلة كأنهن وحوش ضارية . ثم أدار الخليفة جام غضبه نحو النصارى ، ولذا لقب لفظاظته ، بنيرون المسلم . فقد محق الكنيسة ، ومحلة النصارى فى القاهرة ، وأنشأ مكانهما الجامع الأزهر . وأخرب فى القدس كنيسة القيامة تماماً . ثم أضرم النار فى ربع العاصمة المصرية . وترك الأموات دون دفن ، وقد ألقوا للكلاب . ولكن ذهول الشعب الضعيف عن الثورة ، بلغ أشده حينما جهر الحاكم بالدين الجديد . الذى كان هو فيه : الاله والرئيس الديني . »

« ولم يحفظ من أركان الاسلام الخمسة (ولست أود اضجاركن بتعدادها) غير الاعتقاد بوحدانية الله (الشهادة) ، وأعانه أفراد الجماعة (الزكاة) أما الصلاة اليومية ، وصلاة الجمعة ، والمحافظة على الأعياد ، وصوم رمضان ، والختان ،

(١) الضغينة

والحج الى مكة ، فقد ضرب بها عرض الحائط . كما أنه سمح بأكل اللحم المحرم ، وأجاز جماع ذوى القربى . »

« وقد أشار بعض المؤلفين ، أن وزير الحاكم كان حمزه (الفارسى) الخراسانى الجذر ، وهذا دون شك كان متضلعاً من تعاليم الأفاق « حاكم — برقه » ذى القناع الذهبى . الذى هاج خراسان عام ١٦٠ هجرى . ولم يزل له أتباع تؤمن بألوهيته . »

« ان العقائد تدل تماماً أنها ذات العقائد التى كان يبشر بها برقة . هذا اليهودى الذى فاز بحنكته ، وشجاعته النادرة ، أن يجيز نفسه كتأنس الله . وكانت حياته الحقة . أوقع غرابة من القصص ! فقد أصابه عور فى معركة ، نشأ عنه أن ستر وجهه من حينها بقناع من الذهب . وحين هزم وحوصر فى قلعة ، اعمل فكره ، وقد شهد أواخر أعوانه يخرون صرعى ، فى تلفيق ميتة له جديرة « ببطل إله » وذلك بأن طمر ذاته فى دن كلس حار . »

« وكان أشد أتباع الاله الحاكم حماسةً ، قد هاجروا

وكلهم صدور تفيض رجاء ، الى سوريا ، أرض دين المسيح ، وأيضاً أرض المعتقدات الشدّى غموضاً. حيث تشمخ قلاع شيخ الجبل على منأى غير بعيد من جبل الجلجلة ، حيث تنمو أشد المذاهب عداوة ، كالشيعة، الاسماعيلية، النصيرية ، الموارنة ، واليهود على ضفاف نهر أدونيس ، وبين أطلال الهياكل المكرسة لآلهة آسيا . وعلى هذه الأرض النابعة بطائح ووثنية ، تتمكن الزهور المنقعى سماً ، أن تنبت وتينع طبقاً لغرابتها . »

« وفى غضون ذلك ، تم لمصر الفلاح أن تنجو من هذا المعتوه الطاغية ، اذ غدرت أخت الخليفة به . ولعل الوزير لم يكن عن ذلك غريباً . لأنه تمكن بعد ذلك ، أن يحبك بحذاقة الظروف المريبة ، التى أحاطت بهذه الميتة ، حاصداً دون عناء الخلافة الالهية . وهناك على حدور الحرمون وفى وديان وادى التيم ، كان سكان الجبال يهرعون كل يوم فى ازدياد ، للتلقن على المتفقهين فى هذا الدين الطريف ، فى هذه المجموعة المبهمة المبلبلة ، من ذكريات اسماعيلية ،

ومذاهب صابئيـة ويهودية ، وأقاصيص من أقاصى بلاد العجم . وأعلنهم حمزة عن رجوع الاله : « سـيأتى فى يوم مشهود ، من شهر رجب ، وستعلن الأرض مقـدمه بخوارق ، وعند ذاك يمجد أبناءه ، وتتفتح هذه الارض من جهاتها جمعاء ، وتنخسف الجبال فى الاعماق ، فيستوى كل شىء . التلال تصير كالوديان الصغـيرة ، والجبال كالسهول الشاسعة ، الأقوياء كالضعفاء ، والفقراء كالاغنياء » . . . .

— ان يوحنا المعمدان ، قال قبل صاحبك حمزة بألف عام : — « أعدوا طريق الرب ، واجعـلوا سبله قويمة ، كل واد يمتلىء ، وكل جبـل وتل ينخفض ، والمعوج يستقيم ، ووعر الطريق يصير سهلاً . ويعاين كل ذى جسد خلاص الله [1] » . . .

فتأملنا الـكاتبين برفق ، واستصوب الملاحظة ، ثم تابع :

— وكان حمزة هذا ، فى الحقيقة ، داهية دهياء ، متعمقاً فى المباحث الدينية القديمـة . . . ايه ، أجدنى قائماً فيكن

---

(١) لوقا : ٣ : ٤ — ٦ .

خطيباً ، دون أن أقفكنّ على اشتقاق كلمة « درزى » غير انى أكفيكن تعداد الملاحم والمشادات ، التى أدار رحاها ، حول هذا الأصل ، علماء كل اللغات ، وكل الأجيال . فبعضهم يرون أن العوام لقبوا الدروز هكذا نقلاً عن اسم أحد متعصبة حمزة ، المدعو نشتكين الدرزى ، والآخرين يقولون أن حمزة ذاته ثبت تلامذته قائلاً : « اذهبوا الآن ، فأنتم لستم بعد الآن « متدارَسين » بل « متدارِسين » [1] ، لأنكم قد اكتنزتم علوماً ، وغرز الالهام فيكم كما يغرز الخيط البزوز »

« غير اني أدع لكنّ الأمر أن تصدقن ما شئتن ، أو لا تصدقن شيئاً على الاطلاق . وعلى كل حال فالديانة الدرزية غير معروفة تماماً . فهذه مارية ترازية الأسمر ، التى حدثتكن عنها منذ هنيهة ، يا آنسات ، وقع اليها كتب حاوية عقائد الايمان الدرزى ، ولكنها لم تجسر على تصفحها لوساوس دينية — وقد كانت مسيحية — ولعلها لم تكن

---

(١) الارجح ان هاتين الكلمتين هما : « مُتدارِسين » و « مُدَرِّسين » وهما اقرب الى الصواب ، ولهما وجه . والله اعلم !
(م . س . ك)

لتفقه منها الأمر الجليل. وفى عام ١٨٣٨ ، استولت جيوش ابراهيم باشا ، وذلك أثناء الثورة الدرزية الشهيرة فى حوران، على بعض هذه المجموعات مثل «كتاب العجائب والاسرار» و « الكتاب الأحمر أو المقدس » وكانت متونها مغلقة ؛ محشوة نصوصاً سحرية ، ومقاطع غامضة قصداً . »

« والآن اعذرنى على اضجارى ايا كنّ ، هذا الزمن الطويل . . . وهل يرق لكنّ أصدقائى الدروز ؟ . . . اقرأن ما كتبه أحد قناصلنا هنرى جيز Henri Guys «أنباء اقامة أعوام عديدة فى بيروت ولبنان» . أو ما خطه فرديناند بيريه Ferdinand Perrier ، « سورية فى حكم محمد على » أما ان كنتن يا آنسات على جلد عظيم . فأنصحكن بقراءة الثلاث المجلدات التى تحتوى على مذكرات الليدى استرستانهوب ، فلن تأسفن على نصبكنّ . . . وانى سأصمت ، وسأصمت حتى بيروت . والا فانكنّ تلزمننى فقدان وظيفتى « أمانة بيت الدين » وذلك بأن تذعن فى كل مكان : « يالله من ثرثار لا يطاق ! » . . . . وعندكن الحق . . . »

وبارحنا بعد قليل قصر الجبل وحدائقه ، وهممنا بالدرب المؤدى الى جسر القاضى ، وانه ليعلق بي ، افتتان بقعة من الألوان العاسفة . فالجسر أصفر ممغر ، والماء ضارب الى الخضرة . فمنزل بلون زهرة ابرة الراهب الحمراء يشرف على المسيل . . . ومن ثم أدركنا عالية ، وأبنا الى بيروت .

وعندما هبطنا من السيارة ، علمنا أن الباخرة آسيا تقلع فى الغد بعد الظهر ، وهكذا كان بيت الدين آخر منظر لنا من المشرق ، وآخر ابتسامة الأرض السورية ، ابتسامة الأروقة الوردية اللون ، والمياه والأزهار ، ومشهد دهر كامل اضمحل الى الأبد .

وبعد تناولنا العشاء فى المفوضية ، دنا مني الكبتن ب . . . بحال غريب . ودفع إلىّ مجلدين باديى القذارة ، واذ استوضحت الخبر أجاب مستغربا : « ما هذه الا الاميرة أسمر ! »

فلم أجسر على الاقرار أنه غاب عن ذهنى كل شىء ، حتى وجود هذه الأميرة الشهيرة ، ثم شكرته بحرارة .

هذا هو الداعى الذى صرفني عن ترتيب حقائبي هذه الليلة ، الى تصفح هـذين الـكتابين ، دون اهتمام فى بادىء الامر ، تحول فيما بعـد الى رغبة وولع . فانتقلت الى بيت الدين فى سراى الأمير الطاعن ، فى فجر القرن التاسع عشر . ولمعرفتى بزخارفه . توضحت وانتعشت أمامى المغـامرة الفريدة ، التى قامت بها مارية ترازية أسمر . وكانت الساعات تولى سراعاً ، وليل الشرق يلج من النافذة ، ليل ينسكب عذوبة ، تشذيه تلك الروائح المتغلغلة ، أريج البرتقال والياسمين والورود «التى لا يمكن تعريفها ، بل هى كعبير المشرق ذاته ، والتى تشمل » .

١

المنشأ على ضفاف دجلة

كانت تدعى مارية ترازية الأسمر ، ومولدها على أطلال نينوى فادخرت فى عينيها انعكاسات مناظر حقول الحجارة البالية ، التي تأملتها فى انبلاج طفولتها . فهل كان يا ترى فى هذا الميلاد العديم الغبطة ، انذار لحظ غريب بائس ؟ وكان والدها الأمير عبد الله الاسمر ، وينتسب الى كنيسة ترافنكور Travancore . التى أسسها القديس توما رسول الهند ، يسكن بغداد ، الداخلة ضمن أمبراطورية آل عثمان منذ فجر القرن السابع عشر ، حيث يمتلك بها أملاكاً هائلة : أراضى شاسعة ، معامل حرير ، قطعان ماشية ، وقوافل جمال . وكان رجلاً عادلاً صالحاً ، كأنه أحد آباء التوراة ، وله

من الولد ستة عشر ولداً . وما لبث ان اكتسح المدينة طاعون مروّع عام ١٨٠٤ ، أهاب بالامير عبد الله أن يشد رحاله عجلاً مع آله ، الى احدى ممتلكاته الواقعة على مقام نينوى القديمة . حيث كان للأميرة الصغيرة أن تبصر الوجود .

وتمكن ذووها من العودة بعد قليل الى قصرهم الأبيض المطلّ على نهر دجلة ، بحدائقه المكتظة بالبرتقال والليمون . فكانت مارية واخوتها يتسابقون صارخين تحت العقود الظليلة ، فى رياض بغداد التابعة لهم .

وفى ذلك العهد كان مسلم غليظ القلب ثقيل ، يمتلك البستان المجاور لقصرهم . وبهذا أحسن أشجار ليمون العالم ، تتدلى ثمارها الكبيرة الضخمة على الحائط المشترك . فكانت الفتاة الصغيرة تأتى صوبها ما بين هنيهات اللعب ترقب نضجها بلسان متدل ، وعين ندية . ولم يكن البستان حيث اقتطفت حواء التفاحة المحرّمة ببعيد ، حتى تقوى مارية ترازية على قهر التجربة . . . ولم تكن ثمرة أخرى محللة اكثر عصيراً وألذ نكهة من هذه . . . ولكن أوه ! فان لذعات الضمير

افترستها ، وهى على الدوام فى ازدياد ، لا سيما عند تلاوة الصلاة المشتركة كل ليلة ، وأثناء تلاوة التعاليم الالهية . ولذا عزمت عزماً باتاً أن تصلح زلتها ، من دون أى تأخير . ولما كان بستان والدها لا يحوى ثماراً تماثل الفواكه المختلسة ، لجأت الى حلّ التحكيم ، وذلك بأن تبدل الصنف بالكمية . وما عتمت ان أنفذت رأيها ، بأن أطلقت بملء قوتها عبر الجدار ، أربع أو خمس ليمونات كبيرة الحجم ، سقطت برمتها على أبناء الجار وهم يلعبون هادئين . فصرخوا هلعاً ، وقد كادوا يفقدون الصواب . وانضم اليهم صخب الوالدين الحانقين . وهكذا كان الاصلاح أشد جلبة من السرقة .

ولم تفارق قط المنكودة مارية ترازية سذاجتها المحزنة ، ولا يقينها المفرط باستقامة بنى الانسان ، فقد صرفت حياتها ترمى الليمون فى بساتين الغير . . . . .

ودنت الساعة ، التى وجب عليها ، احلالها للشيخ الفتى المختار لها ساعة ميلادها . وكان عمرها آنئذ اثنى عشر عاماً . وهو يبلغ الخامسة عشر ونصفاً . ولكنها كانت فتاة نشيطة

جسوراً مقحاماً . فطوراً تلهو بالتمارين العنيفة ، وتشغف بالجولان الطويل على ضفاف دجلة ، وطوراً تنعزل فى غرفتها تقضى الليالي برمتها غرقى فى الصلاة . ومع أنها لم تكن على حسن يضاهى جمال شقيقتها الكبرى — ذات اللون الناعم المشرّب بالحمرة ، والعينين النجلاوين اللوزيتين ، والشعر الكستنائى ، مما أنالها بحق لقب « فريدة » — فانها كانت على جانب عظيم من الملاحة . فملامحها نقية ، وجبينها عال ، ينضب ذكاء ، ونظرها ثاقب صاف معاً . وأحياناً كانت نظراتها الفتية الكيسة ، تشع حميا غريبة ، يكمل ذلك كله علمها الخارق ، فقد اقتبست من اللغات دون جهد : اللاتينية ، الايطالية ، الافرنسية ، الهندية ، والعبرانية . كما ان اللهجات السريانية والكلدانيه لم تكن بالغريبة عنها . غير أن أفكاراً مجهولة من الشرقيات ، مالبثت ان أظلمت ذلك المحيا الرطب . اذ أدارت سكان جدها نحو حالة النساء فى تركيا[1] ، فخنقت

---

(١) تجمع السيدة المؤلفة بلفظة « تركيا » لا دولة تركيا ذاتها ، بل سائر البلدان الواقعة أوائذ تحت راية الهلال العثمانى ، كما تعني مراراً بلفظة « تركي » المسلم . (س . م . ك)

من التفاوت بين الجنسين . وحدثت نفسها عازمة عزماً صادقاً على تحرير أخواتها . فهى لذلك دون أدنى منازع ، أولى الشرقيات « النسويات » لكنها عاملة نسوية حكيمة .

وكانت ما لبثت أن صارحت أباها بنيتها بالتنسك ، منذ بلغت السادسة من العمر . فابتسم والدها لما عده طيشاً . فأدارت وجهتها نحو خطيبها سائلة عتقها بالحاح عظيم ، أفضى الى زهد هذا فيها ، فدخوله الدير فى لبنان

وحدث فى ذلك العهد أن ولي باشا جديد على الموصل . فاضطهد النصارى متبعاً السنة السارية فى سائر أنحاء تركيا وقتئذ . والقيت اذ ذاك عائلة الاسمر فى أعماق السجون . وبعد ان جلدوا ونكل بهم ، أطلق سراحهم بفدية عظيمة .

ولم يمض سوى القليل حتى خطرت لجد مارية ترازية ، الفكرة المشؤومة ، بتشييد كنيسة فى « تل قاف » ومن غفلة أو خباثة المهندس ، لم تقم طبق الرسوم المجازة . فتجاوزت المقاسات المصرّح بها من الباشا . وكان الجزاء غمرات

السجن من جديد ، غير أن جشع الاتراك لم يلبث ان تغلب على قساوتهم .

واضطر الأمير عبد الله الاسمر الى التخلي عن ممتلكاته ، ومطاحنه ، وخيله ، وقطعان ماشيته ، وجواهره ، وبذا أضاع كل شيء ، ولم يبق له سوى ولده وايمانه ، وجسد دام مثخن ، يبعث الحياة فى ارادة لا تلين ، لتخلق وتبتني قصوره ، وتزرع رياضه ، وتنشيء قوافله التى عادت رويداً رويداً تقطع الفلوات ما بين دجلة ودمشق . وكلل له النجاح عام ١٨٢٠ . وسكن هو وذووه البالغ عددهم الأربعين بما فيهم الخدم ، قصراً فى الموصل ، كقصر اللوفر رحابة فى باريس . وعادت الحياة الثرية الى مجاريها كما كانت من قبل .

وعاد والدها ، فجلب على نفسه لسوء الطالع ، يقظة الحكومة ، اذ أولم لخلانه ، وليمة فى حدائقه القائمة على طلل نينوى . فغلى الباشا ظنوناً عن هذه الثروة ، التى لا يمكنه ، وهو تركى صميم ، أن ينسبها الى العمل والجد . فأتهم حالاً الأمير عبد الله ، بالعثور على كنوز فى نينوى .

فأرسخ بالقيود مرة أخرى. وأودع غياهب السجون التركية. ولن تنسى مارية ترازية عويل والدها وأشقائها، من فرط الألم، أثناء جلدهم والتنكيل بهم. غير أن الحجة كانت صفقة رابحة في الاستيلاء من جديد، على أملاك الأمير، الذى أطلقه الباشا مدنفاً. ولم تعش والدة مارية ترازية كثيراً من بعد حليلها. يلى ذلك هجوم طاعون احتسب فى الموصل وما حواليها، ما يقرب من مائة الف ضحية. وشهدت مارية ترازية كل من يلوذ بها يضمحلون: أشقائها، أبناء عمها، ذوى قرباها، وأصدقائها الذين تصلها واياهم قربة الفؤاد والروح، اكثر من رابطة الدم، ولبثت هى وحيدة فريدة بين تلاشيات الأحياء المخيفة يبتلعهم جوف الأرض...

ورجعت الى بغداد تكاد تفقد الرشد.

ولم تحل سنوات الحداد والحزن دون تفكيرها بابراز مطامحها النسوية، وأمانيها فى الرسالة، الى حيز الوجود. وان ذلّ النساء مدعوم بالاسلام: فالمرأة أمة خرساء، محظورة في الحريم، مع قطيع من النساء والسرارى. وهى

شيء لا يقام له وزن ؛ فاذا طاب لرب البيت أصلفها غداً ؛ أو باعها فى السوق العام . . . هذا ما تخيلته فى الموصل عام ١٨٢٠ ، أميرة بابلية أخربها الاتراك : أن تهدى الاسلام عن سبيل المرأة .

ولكن المقاومة كانت عامة . فالنصارى كانوا يعدونها معتوهة ، ولكن مارية ترازية لم تقنط ، بل حاولت وبرهنت ، وأخمت ، وألحت ، فانتصرت . ولقيت معاضدة بعض المقتنعين ، فافتتحت مدرسة للنساء الراغبات فى العلم ، يأتين اليها فيتعلمن التفكير والقراءة ، والكتابة ، والخياطة . وكان العدد ينمو يوماً بعد يوم ، غير أن وصول مرسل سافل معاد ، أباد عمل مارية ترازية . فأوصدت باب المعامة ، والتزمت الأميرة التعسة ، خافقة مقهورة ، أن تلجأ الى ضيافة صديق والدها : سيد قبيلة الرياح [1] .

---

(١) بالافرنجية مكتوبة هكذا DRYAAH ، تظهر كأنها « رياح » ونظنها اقرب الى أسماء هذه القبائل : ضرليّة ، ضروعة ، أو ضريعة .
(م . س ك .)

لبنان زانو حي الربيع وشاح
وعيونكم السحور غانه وناح

٢

من الموصل الى بيت الدين

قضت مارية ترازية ستة أشهر تأوى الخيام السفع. ستة أشهر كانت ضيفاً كريماً، تشاطر القوم الشواء المألوف وتستسيغ شواء الغزال، وسط حياة طلقة فى جوف البادية، حيث السكينة وهدوء الليالي، وقريرة الصبح، وجمود الاشياء تنفذ الفؤاد. فكانت تنهض فجراً، في أيام راحتها هذه، تصلى تحت سماء أدنى من سماء بغداد، بين النساء الملفوحات الهيف الجميلات، اللاتى كن يقمن بالخدمة البيتية، فى جلال فريد، وقد أعجبت ترازية بجلدهن وبسالتهن المضاهية للرجال، وذكائهن الادق. فكانت تقرأ لهن الكتاب المقدس. واذا ما أدجى الليل، اجتمعت عائلة الشيخ حول النيران، التى

تبدو فى صحراء الظلام والرمال كأنها الأحياء الوحيدة فى جوفها. ومن ثم تأخذ الأقاصيص ، مكان الأغنية المحزنة .

وفى يوم ما رفعوا الرحال . فدوى هرج الخيل ، وضجيج النساء ، وحرن الجمال الرازحة تحت ثقل رحالها ، ومرح الفلول الغير المجللة ، وغناء ، وصهيل ، وصياح ، وأصوات المطارق على أوتاد الخيام . وتحركت القبيلة في قافلة تتلوى كالثعبان ، تنساب على الرمال . فالرجال على الركائب ، والنساء مكدسات على ظهور الجمال . ثم الاطفال والاثقال ، والماشية . ويجرى على جانبى القافلة فتيان يحملون اللحم ، والخبز ، والتمر ، يصيحون « ليتقدم الجائع ! . . »

وشهدت مارية ترازية عقد قران ، فترقبت مقدم الخطيب ، متخفية فى زى البدو . فأبصرت فارساً ممتطياً حجرة فريدة الثمن ، يهز قناة عالية ست عشرة قدماً ، يعلوها علم أبيض ، تتلوه جمائل مزينة ، مجللة بالورود ، مبهرجة بأضراب الغصون والزهور ، تتهادى مضطربة ، في هذه المفخرة الجهرية ، وما هذا أجمعه سوى جزء من الصداق

المبعوث به من العريس . وبعد ذلك يأتى عبد يحوطه جوق من المغنين ، ففرقة مقاتلين يطلقون بنادقهم ، فرهط من النساء يحملن مواقداً ، تحرق عليها أعواد الندّ . وفى الاثر رعاة يسوقون أغناماً ، يلعلعون صياحاً : «هكذا كان يصنع شيبوب شقيق عنترة ، منذ عشرين الف عام . . .» (١)

وكانت الزنجيات المهديات الى العروس ، يرقصن أمام البعير المحمل بجهاز العرس ، من المشالح الموشاة بالذهب ، والخمر المرقطة ، والخفاف الصفر ، يكمل هذا المشهد صبي ينادى دون انقطاع : « لينتصر قومنا دواماً ! » وتتلو العروس على خلها الابيض ، المكسو بريش النعام ، فتشهد مصارعات الظفر بها ، متحجبة مستورة وراء سجوف هودجها . . . وظلت مارية ترازية تشاطر القوم ملاهيهم وأفراحهم ثلثة أيام كاملة .

ولقد كان بأمكانها أن تفنى ايامها بين عشراتها البدو

---

(١) لعل عدد الاعوام هفوة مطبعية فى النص الافرنجى
(م . س . ك .)

غير أنها كانت تكتم بين جوانحها منذ عهد طويل ؛ شوقها لزيارة الاراضى المقدسة . فاستأذنت الشيخ رياح بن شعلان ، حامدة له فضله . وقد خنقتها العبرات . وقد أشارت فى يومياتها بعدئذ ، وهى بائسة منبوذة فى لندن ، تذكر الاشهر الرغدة لذلك العهد المنصرم : « ان المرء ليجدن فى يوم واحد بين القبائل البادية ، أصدقاء أوفياء عدّة ، ما لن يجده فى قرن فى اوربه المتحضرة ، حيث يمكث المرء السنوات العديدة ، دون أن يتعرّف بجاره . »

وقفلت ماريه ترازيه عائدة الى بغداد ، حيث قيض لها أن تنضم الى قافلة تطلب الشام . بينها خمسة عشرة الف جمل وخمسة آلاف مسافر . وقد كان لهذا الجم مسير ستين يوماً لادراك تدمر ، الحلية الملكية من الحجارة البالية ، فى قلب الصحراء السورية . فاضطرت مارية ترازية أن تستقي من الماء الآسن فى الزوايا القذرة . وشعرت بالحمى تتغلغل فيها ساعة بعد أخرى . فرجت رفقاء السفر أن يودعوها الثرى ، اذا ما أدركوا تدمر ، ويخطوا على مثواها هذه العبارة :

« هنا تستريح فتاة البؤس ! » ولكنها أبلت من مرضها ، وولجت دمشق ، المدينة الكاملة « السعيدة ثلاثاً » التائهة بقصورها الوردية ، وبساتينها المائجة ، كأنها زهرة أينعت باعجوبة بين فجوات الرمال . وهناك زارت المسجد الأموى ، متخفية بخمار ولباس المسلمات . وافتضحت ، ولكنها أفلتت من الذبح . ثم طافت لبنان ، وزارت أدياره المشيدة كأوكار النسور ، وقراه الجاثمة على شعاف البطاح .

ونزلت مارية ترازية فى ضيافة سيد مارونى . واتفق فى ليلة ، أن ولج الغرفة وقت العشاء ، فتى يقارب الخامسة والعشرين من العمر ، طويل القامة ، ممشوق القوام ، مفتول العضل . وفى الوقت ذاته بادى الادب ، فاخر اللباس ، يطرح الى الخلف فراء مموهاً بالذهب ، مبطناً بالبرفير ، غير ان محياه النتي الرزين ينضح أسى قانطاً . وانقطع حبل الحديث لدى مقدمه ، واكتسى الندماء حلة من العطف والانس معاً . وعندما استوضحت مارية ترازية ، مضيفها عنه ، روى لها : — ان هذا الفتى كان يقود بالأمس شقيقته الى زحلة ،

لتزف الى أحد موارنتها . واذا انتصفا الطريق ، وقفا لاراحة جواديهما . فمرّ بهما سيد متوال ، يتبعه بعض الحشم . غير أن هذا ما كاد يلمح محيا المسيحية السافرة ، حتى وقف فجأة . أما النظرة الواحدة كفيلة فى الشرق أن تفك مطاوى الرغبة وتنبت الحب ؟ وعليه أمر أتباعه أن يغتصبوا الفتاة. ولكن المارونى حذر المسعى ، وقد أبصر التئام الفرسان ، وبنظرة واحدة جلى الموقف تماماً ، فقد قطع عليهما خط الرجعة . ووراءه المسيل . فشهر للحال مسدسه ، وقتل أخته . ثم هجم على المتاولة الدهشين ، وألعب بينهم خنجره ورمحه كالمأخوذ ، حتى أدرك القرية . ولكن منذ ذلك الحين ركبه اليأس ، فقد كان يحب أخته حباً كالعبادة . غير أن أصدقاءه حيوا فيه هذا القتل الأخوى الباسل ، وأهدوا اليه مشلحاً حريرياً ، كان يرتديه منتفضاً .

وألحت احدى رئيسات الاديار فى لبنان على مارية ترازية باداء زيارة الى احدى أميرات آل شهاب ، تمت بنسب بعيد الى الأمير بشير . وتقيم فى قرية شملان على مقربة من

بيروت ، وباستطاعتها حمايتها فى السفر لما لها من النفوذ . وبالفعل عرجت مارية ترازية على شملان ، حيث زارت الست حدوش [1] ، ربيبة الأمير ، ومن ثم أقلعت من بيروت الى يافا فالى القدس ، مدينة الرغائب القدسية . ولم تكد تحط بها رحلها . حتى حل طاعون اجبرها على مغادرة فلسطين حالاً ، فسافرت الى مصر ، فتركيا ، وذلك مما حال دون زيارتها القبر المقدس . حتى العام التالي : ١٨٢٦ . فصرفت أعياد الفصح فى القدس المكتظة بوفود الحجاج الغرباء من مصريين ، وكلدان ، وأرمن ، وفرس ، وروس ، وهنود ، والبلدة ترتج من طرق عبادة الروم الصاخبة المصمة ، وهم يتدافعون نحو النار الجديدة .

وعند إياب مارية ترازية ، من جولة فى الجليل ، وجدت كتاباً من أمير الدروز ، وملك الجبل ، يقول فيه :—

« ....عالمنا بحلولك ديارنا ، والمصائب التى نزلت بساحة

(١ لم نسمع قبلا بمثل هذا الاسم (Hadouch) ولا نعرف عن نسيبة الامير هذه شيئاً . ولعل اسمها : خدوش ، أو حنتوش ، أو حنوش . ومي أسماء كانت سارية بين المسلمين والنصارى . (م . س . ك .)

عائلتك المنكودة ، وبعمك الجليل النبيل مارباسيليوس الاسمر ، رئيس أساقفة ديار بكر . وقد خبرنا أيضاً عن نيتك فى اعتزال العالم ، والاستكانة الى دير فى جبالنا ، وصرف أيامك فى أراضينا . غير أننا نأمل أن نحظى باكرامك فى قصرنا ، ونأخذ على أنفسنا عهداً ، باتمام كل الاجراءات اللازمة لانجاز رغباتك . وكيفما كان الحال ، فانا نلتمس اليك الحضور الى بيت الدين رأساً ، فان ابنتنا الست حدوش هنا تهيم بلقياك . وقد رجتنا أن نكتب اليك فى هذا المعنى ، لندعوك الينا ، آملين عدم ترددك فى القبول . . »

بشير

فأجابته مارية ترازية دون تأخير بالايجاب .

الأمير بشير

٣

الأمير بشـــير

ليست عكا، وصيدا، ودير القمر سوى مشاهد عابرة. ولكن ها هوذا في أقصى الوادى قصر الأمير شامخاً على تل، يرصد المسافرين على منعطفات الطريق. وقد ذهلت الاميرة البابليـة، حتى خففت عدو جوادها. فان مشهد بيت الدين كباقة ورد، إذ هنالك طاقات ناصعـة البياض، وعواميد تزهو على الورود، وسرو يرتفع كالمآذن، وقباب تختفي بين الزهور، وحدائق من الرمان، ورياض تشـذو عبيراً عطراً.

وتقدم المسافرة طليعة من الحرس الفخم، أوصلها الى باب سري، وقادها الى ساحة ذات نافورات بديعة، حيث

كان بانتظارها جوار غسلن رجليها ويديها ووجهها . وتسلمتاها فتاتان تضمخانها بالعطور ، بينما كانت أخرى تبسط فوقها فوطة ، تحول دون تلاشى دخان البخور . ثم فتيات أخريات ينضحنها بماء الورد . ولما فتحت مارية ترازية عينيها شاهدت نفسها بمفردها ، وقد اختفت الاماء الجركسيات ، تاركات لها على طاولة قريبة القهوة والنرجيلة ؛ وكان ظل الايوان الظليل ، وعبير الحديقة الحارة ، وأغاريد الطيور ، ونغمات الفسقيات ، وكدف الخيل على بلاط الساحات الداخلية يغرى بالنوم . ولما انتبهت من رقادها ، الفت ذاتها فى حضرة أمير الدروز ، وزوجته الاميرة حسنى جهان .

كان البشير من أسرة شهاب القديرة ، نهض فتياً باعباء حكم أربعين حولاً . ويستشف من خلال هذا المحيا — الثابت الجنان ربما طوعاً — آثار الشباب العاصف ، فى ظل الباشا الجزار ، والحروب المتواصلة ، والدسائس البارعة ، والمنافى القاسية . وإذ يدخل هذا الكهل ، المزدان كأحدى

السلطانات ، يخال للمرء أنه معه تحيا صفحة كاملة من التاريخ. فيذكر حصار بونابرت عكاء ، وحنق الجزار لحياد البشير ، ثم اقلاع أمير الدروز الفجائى على سفينة السر سدنى سميث: الخطوات الاولى نحو المنفى الذى كرره عام ١٨٢٠ م . فاراً من وجه مطالبات عبد الله ، باشا عكا ، المالية . ثم يذكر الحرب التى استعرت بين باشا عكا وباشا دمشق ، وتأييد بشير لعبد الله ، مما أثار عليه نقمة الامبراطورية التركية . فمداخلات الباب ، وحصار أقوى الجيوش لعكاء . فمناداة الشيخ بشير جنبلاط ، بالأمير عباس شهاب ، حاكماً على لبنان .

ولم تكن قد مضت بعد أربعة أعوام على ذلك العهد ، الذى كان البشير فيه مطروداً ، مهجوراً ، مزعزعاً ، فى اجارة محمد على . وماذا كان يحدث إذ ذاك فى قصر شبرا ؟ ان الخديوى ، ككل الفراعنة ، قد خلبت سوريا الساحرة لبه . فلذا أحلّ أمير الدروز أعز منزلة ، ولا مراء انه سبر غوره بفطنته ليعلم احتمال تكوين جيش من اللبنانيين ،

مدعياً استخدامه للحملة على بلاد اليونان تحت امرة ابراهيم باشا ، ثم من المحتمل ان لزم الأمر ، استنجاده فى اكتساح الشاطىء السورى .

وتدخل محمد على ، وسيط خير ، فطمأن عبد الله . وسعى لدى الباب الذى وجد أن العفو والاغضاء الوقتى ، هو خير سياسة يلجأ اليها . وبذا آب البشير الى لبنان ، وهو المتمرن على العودة من المنافى . فكانت حركة القمع مروعة . ففى العام السابق أبيدت دروز الشيخ بشير الجنبلاط فى المختارة ، وأهلك كبيرهم ، والقيت جثته للكلاب . وبالامس أتهم بعض أفراد آل شهاب فقتلوا .

وظلّ الامير قويماً جليلاً ، وعلى سيمائه علائم النبل العظيم . فتحت عمامته الموصلية ، المزدانة بالزهور ، والمطرزة بالخيوط الذهبية ، كانت عيناه الحالكتان تتحركان على الدوام ، ينبعث منهما الشرر ، وتتطوران بين آن لآخر بين القسوة والخيلاء والعذوبة الفتانة . وكانت لحيته كثة فضية تتدلى حتى وسطه . يلبس كبراناً مقصباً ، وشروالاً قرمزياً ،

مكفوفاً بأطلس زمردى الخضرة . ويتمنطق بشال فارسى ، أزرق فيه خنجراً ، قرابه من الذهب الخالص ، المغشى بالحجارة الكريمة . وكانت يده البيضاء الصغيرة ، تمر بين حين وآخر على مقبضه ، حيث تلمع جوهرة ضخمة الحجم جداً ، تقدر بثمن مملكة .

وكان صوته فى الحديث عميقاً مرناناً ، لا ينساه سامعه ، صلصالاً حينما يدعو للحشد فى مصاخب الهيجاء . وشجياً جذاباً للافئدة الشدّى حذراً .

ثم قال بشير بعذوبة : — ان هذا المنزل منزلك ، ورغباتك فيه أوامر .

واستقصى البحث عن نياتها . . فاذا هى تسعى لدخول الدير . . ألا كيف يصير ذلك ، وبيت الدين فى الوجود ؟ وعليه فستجد الاميرة حسني جهان خدناً تؤانسها ، من مرتبتها ومن دينها ، وستجد مارية فى ذات الوقت ، تحت سقفه مأوى اكثر سهولة لممارسة الفضائل المسيحية ، مما تناله فى صومعة . فنزلت عند ذلك ، وقبلت أن تكن العشيرة

الاولى . وصرفت بذلك ست سنوات فى بيت الدين ؛ ست سنوات كانت فى اثنائها تكتب يومياتها : صورة ثمينة فكهة لحياة السراى فى مطلع القرن التاسع عشر .

كانت حسنى جهان ، الحميلة الثانية للأمير ، وهى فتاة شركسية المنبت ، حديثة السن جداً ، على حسن عظيم ، ابتيعت فى أسواق الاستانة ، مع اماء أخر . واختارها البشير من بينهن ، لتكون رفيقة حياته ، بعد أن لقنها مبادىء الديانة المسيحية ، ونالت العماد . وبما انها تربت تربية شرقية ، فلم تكن تحسن من القراءة ولا من الكتابة شيئاً ، ولا بامكانها أيضاً أن تتابع أطراف الحديث بالعربية ؛ فكان أن يقع حمل المراسلات على عاتق مارية ترازية ؛ غير انها كانت على جوانب عدة ، من جاذبية ، وغرائز ، ووداد ، وذات شمائل تفيض دماثة . أدّت بعشيرتها الى التعلق بها بكليتها .

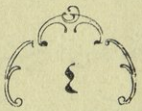

٤

فى القصر الجبلى

كل شىء هادىء فى بيت الدين .. لا ، فهناك فرد يتحرك . شبح يخترق الرواقات الخالية المظامة ، وللنهار بعد ساعتان ... ها هوذا الامير بشير يلج ايواناً صغيراً ، بالقرب من درج القصر . ويجلس على المخدات المخملة برهة ، شارد البصر ، يدخن أنبوبته الطويلة التى لا تفارقه لحظة .. تمثالا جامداً يجلب الرعب ، وعن جانبيه عبدان أسودان ينتظران أوامره .

واذا ما أشرقت الغزالة ، انتعشت الحياة فى الحريم . فالسواس يذهبون الى المواخير ، والخدم يمرون حاملين أجاجين الماء العذب . فيؤدى الامير وزوجه صلوات الصبح . وفى الاعياد يقيم أحد الكهنة القداس . ويقدم

طعام الأفطار على احدى الشرفات المطلة على الوادى ، الشديد الاخضرار فى النور المشرق .

وبعدئذ ينتقل البشير الى قاعة المشورة ، حيث يحتاط به عدد عديد من كتبته ، وكتمة أسراره ، ومماليكه البيض والسود . فيفصل فى مشاكل الجبل ، بينما يلتئم حوله جمع غفير منمّق من الموارنة ، الدروز ، الاتراك ، المتاولة ، والاغريق . وذكرت مارية ترازية : « ان يده الوالدية ، كانت متأهبة دواماً ، لبذل العدل بين الجميع على السواء » .

وعند الظهيرة يدخل الخدم القاعة حيث الامير ، ويكسحون مجلسه . ثم ينصبون على الارض فوطة مزركشة ، بالاف الرسوم الملونة . ويمدّون على هذا السماط الفجائى ، كراسى (اسكملات) تعلو نصف متر عن الارض ، يحملونها أطباق النحاس الكبيرة المستديرة ، وعلى الجوانب الأربعة تتراكم جبال من رقاق الخبز الطرى .

وتمتلىء الاطباق كالسحر بالصحون الصغيرة ، وبها

طيور مسلوقة ، محاشى كثيفة لزجة ، زيتون اسود ، اسماك مغمورة بالخل ، خس رطب ، فستق مملح ، امعاء المواشى مشوية متوبلة بالتوابل ، انساء لحم الحملان ، مضرجة بشحم الذيل ، جبن تشذو منه رائحة حشائش جبل الكرمل ، وكرات اللبنة السمراء ، وعلى الطاولة كل الالوان وكل الروائح — من الدراج والحوامض ، والمقبلات ، والدسائم ، والمتبلات بالخل ، يتوسطها طبق عظيم من الرز المفلفل [1] ..

ثم توزع الملاعق الخشبية ، كبيرة مسطحة تعرقل المآكل ، يديرها المؤاكلون من طبق لآخر ، فتخط وراءها ذيولا من الزيت والمرقة . وتقدم عندئذ الشواء والسلطة ، مكان النقولات .

وعند ما يكتفى الامير يؤذن ، فيقدم له طشت وابريق من النحاس ، لان الغسل محتم ، وقد ولجت يداه الشواء ، يقتطع النسء ، التى اكلها ، والتى قدمها مجالة الى كبار ضيوفه . وبعد ذلك تدار الحلوى الحمراء ، والخضراء ،

---

(١) اين الكبة ياصاح ، واين عشرات المعجنات أيضاً ؟ (م. س. ك.)

والفواكه الفريضة والجافة ، كالزعرور البرتقالى والموز الضخم الكثير العصير ، والمشمش الدمشقى ، وحساء التمر ، وطم قمر الدين ، والشمام الصفدى ، والليمون الانطاكى الحلو ، وأصناف الفطائر الملأى بالسكر والعسل والسمن ، واللوز ، ونبات « رعى الحمام » والورود . اما الرز باللبن ، فهو كالشواء من ضروريات المائدة . ولكن ليس من أثر لأى صنف من النبيذ اللبنانى ، الذهبى اللون ، الحلو ، ذو الرائحة البخورية ، والذى يترك فى القصر عطر الزهور ، بل هنالك كراز ماء صاف ، يزرنق منه الضيوف . . . وبعد ذلك يعاد غسل الاصابع ، ويطاف بالقهوة المعطرة فى فناجينها الدقيقة مع النرجيلة . وبعد ربع ساعة من الزمن ، ينصرف أبناء الامير وضيوفه .

وتكون الاميرة قد تناولت فى مقاصيرها ، غذاء مماثلا لاتحوطه الكآبة قط . فان لها ايضاً ، وصائفها ، وقريباتها ، وضيفانها ، من أفراد اسرة شهاب ، وعقائل كبار الموظفين فى بيروت ودمشق ، والدرزيات النبيلات اللائى يأتين للزيارة

على الدوام . فاذا انتهين من الغذاء ، توسدن على الشرف ، وبيدهن فناجين القهوة ، وقصبات التدخين وترقص لديهن امة سوداء « فكهة » رقصات ابتكارية فذة .

ان ما بعد الظهر رائق ، يكاد يكون على وتيرة واحدة . غير ان مارية ترازية ، ذات الروح المبتكر ، كانت تتسلى فى مساخرة الحاضرات ، فقد تواطأت ذات يوم ، هى والاميرة حسنى جهان ، فاستعارت ابهى ملابس الامير : زيا من الجوخ المموه بالذهب ، سروالا فضفاضا ، من الاطلس الوردى ، عمامة موصلية ناعمة ، ذات أزاهير ملونة ، وشالا فارسيا ثمينا جدا ، فاكتسبت بذلك هيئة حربية ، بل لم تنس ان تزج فى نطاقها خنجرا . ثم وثبت فى القاعة ، حيث احتشدت الأميرة وضيفاتها . وما رأت الدرزيات والتركيات الجميلات رجلا ، حتى نهضن فى جلبة ، يسدلن اخمرهن على عجل مولولات . بينما حسنى جهان تكاد تجن طربا . فلم يضطرب الفتى المتمثل ، لهذا النجاح ، بل استوى الى جانب الأميرة الشهابية يكيل لها القبل .

فازداد الصخب ، وادى الى دخول جارية سوداء مع بعض الاماء . لاستيضاح كنه الضجيج ، وتسمرت هذه دهشة أمام مارية ترازية ، اذ لم تتبينها أيضاً . ثم ولت تستنجد حارس الحريم ، وكان هذا كهلا قوياً ، طوله ستة أقدام . فهجم على الدخيل شاهراً السيف ، وقبض على طوقه ، وهزه بعنف ، قائلا : « من سمح لك أيها الكلب ، بخرق الحرم المقدس فى القصر . هيا تكلم . أجب ! »

وانى للمنكودة مارية ترازية بالجواب ، وهي تكاد تختنق فى قبضة الكهل اللعينة . فناضلت عبثاً كى تسترد تنفسها ، فى حين كانت الاميرة حسنى جهان ، تشرق ضحكا جنونياً ، مستغربة فيه دون التلفظ . وكان الحارس النكد يزداد رجاً للباس الامير المنحوس ، الى ان تمكنت الأميرة ، وقد شهدت الى أين ستجر العواقب ، بارسال كلمتين . فهدأ روع السيدات ، وشاركنها فى الضحك .

ولم تكن هذه الواقعة ، لتشفى مارية ترازية ، من هوس التنكر . فالليالى كانت تصرف بين الاحاجى ،

وتدبير مناظر حية ، ومشاهد مستقاة من الحياة العادية ، مما ندعوه فى اوروبا « عرضاً » (Revue) وكانت مارية ترازية فى آن واحد: المؤلف ، منظم المشاهد ، الممثل ، و المزخرف. والقطعة التمثيلية التى حازت نجاحاً باهراً ، هى زيارة ملكة سبأ سليمان . فكانت مارية ترازية تمثل فيها دور الملك الحكيم للغاية ، وقد تسربلت لهذا المشهد باحدى ملابس الامير الاحتفالية . ولم يهدىء روعها ، حتى أخطر حراس الحريم ، أن يصموا مسامعهم دون كل شىء .

وكانت الاميرة حسنى جهان ، اسحر ملكات سبأ . وقد اتشحت بزى الدرزيات ، بفخامته البربرية . ففوق قميص اصفر باهت ، وشروال مقصب بخيوط الفضة ، يهبط عليه ثوب من القطيفة القرمزية ، مرقم بالمعدن الثمين ، مهدب بالذهب ، مبطن بحرير فرفار . أما رأسها فيزينه طرطور من الذهب الرقيق ، مرصع بالجواهر . وهو اللباس الوطنى ، ويتألف من مخروط مجوف قطره بضعة أقتر ، وطوله متراً تقريباً . ثم الطرحة الشفافة التى تثبت

الطرطور ، مغطاة بشبكة لآلىء وقطع ذهبية . وعلى الصدغين تهدب صفيحتان مزوقتان بالياقوت الاحمر ، تنتهيان بشريطين يعقدان تحت الذقن ، وفى تضاعيف الشعر خيوط لؤلوئية ، وشراشير الحرير والعقيق تتهدل فى ضفائر عديدة حتى الخصر ، وبين كل شرشرة وأخرى ، سلسلة ذهبية تذرء بالريالات البندقية . وان ازديان الرأس بالشبائك والدوالى ، يذكر المرء بزينة الرأس فى عهد النهضة الايطالية .

ويزهو الجبين بعقاص من ستين ديناراً ، يتلالىء فى جوفها « الناطور » وهو جوهرة فريدة . قوّمها جواهرة الارمن بأكثر من أربعمائة وخمسين الف غرش . كانت تخص فيما مضى الشيخ بشير الجنبلاط المنكود الحظ — وهذه الحلية هى « الصافى » اولى زينات المرأة المتزوجة ، التى لا تفارقها أبداً برغم الخراب والحداد — ثم ازهار من الحجارة الكريمة ، وباقات من الياسمين والزنبق الطبيعيين . حلية من الالماس ذى الخمس الصفوف ، وعبرة قلائد من

اللالىء ، وقرطان بريم الشمس ، يتألف كل شعاع من لؤلؤة ضخمة . وهذان ثقيلان جداً ، حتى وجب ضمهما الى سلسلتين شدتا الى القفا . فأساور من الذهب الخالص ، وخواتم من الزمرد تملأ الاصابع . . وقد أعلنت مارية ترازية « انه لو حوى نموذجها نصف هـذا الافتنان ، لأدى دون شك بالملك الفائق الحـكمة ، الى فقدان حكمته ، أثناء تأمله محياها الخليق بالسجود . . »

يا له مشهداً فائقاً ! . . . ان المرزح يقوم فى احدى قاعات الحرملك الـكبيرة ، فالجدران موشاة بالقاشانى الازرق ، والمرمر الوردى والاسود ، فالطنافس الزاهيـة الالوان ، وأبسطة تبريز وبخارى . وقد نصبت عليها سدّة . وجلس سليمان على عرشه تحوطه حاشيتـه . يترقب مقدم الاجنبيـة الحسناء . . . ودخلت الملكة ، فحاشيتها ، فامائها يحملن الهدايا . وكانت رؤوس النساء السفع ، تنوء رازحة بالسلاسل والحلى ، كما ينوء الورد الذابل فى قيظ النهار الفارط .

وجلست المتفرجات ملتئمات الشمل، مواجهات المشهد، يدخن النرجيلة، على المرافق الحريرية، كأنهن باقة زهر زاهية، شتتت شعثاً على الحضيض. فالعمائم المدبجة، والقنابيز المطرزة بالابريز، والالوان الحمر غير القانية والحلل، والأخمرة الصفر الناصلة، والارجوانية القانئة، والزرقاء السماوية. وعدد عديد من الأهداب تنتفض عليها راعشات وعاكسات فضية... وأخيراً جوارى الحريم السود، بملابسهن البرش، يتدافعن الرُّئى، من خلف القناطر المطلة على الباحة. ومن ثم تشهد من النوافذ الحدائق الزاهرة، تشف عن ظهور لبنان الخضر، ويظهر البحر فى أقصى الوادى....

وحوت هدايا بلقيس حمامةً وقرداً. وحاز الأخير بمفرده استحساناً فاق الممثلين كلهم جمعاً. إذ تقدم نحو العرش فى شىء من الوجل، وركع، وقبل الارض. ثم انتصب قفزاً. وأدنى يده من فيه وجبينه وقلبه. وإذ ذاك بلغت حماسة المشاهدات أشدها. وبذل حارس الحريم

قصارى جهده ، لتنفيذ الاوامر الصادرة له . . . وقد أصاب الامير بشير فى قوله : — ان بيت الدين ليس منسكاً . . .

ثم هنالك ملاه أخرى ، كالشطرنج ، ولعبة الخواتم ، والتنزه فى الحدائق العجيبة يخترقها خرير المياه . . .

وكانت عادة الأمير بشير أن يلاقى الاميرة ، عند المساء ، على أحد الرواشن المظللة بالدوالى ، المحوطة باقفاص الطيور . فيجلس البشير على كرسى ، انجليزى الصنع ، أهدته اليه الليدى المخبولة استرستانهب — التى بعد أن ذرعت الشرق طولا وعرضاً ، نصبت خيمتها فوق رابية منفردة من لبنان — فيدخن فى هدوء ، ويدير طرفه من آن لآخر يتفسر المحيطين به ، ويخيل لمارية ترازية انه يستعيد متحسراً ذكرى جرائمه السالفة : ولكنه يقيناً يتصفح مفاوضات شبرا ، ويفكر فى مقاصد محمد على .

٥

لقاء الليدى استرستانهب

وفى ذلك الحين كان بين ضيفان الاميرة حسنى جهان ، سيدة درزية جليلة القـدر ، اصطفت مارية ترازية ، وعرضت عليها مراراً الضيافة ، وكى تبرهن لهذه على عدم ضغنها لرفضها المتواتر ، بعثت اليها بسلتى فواكه . ولسوء الحظ راق للخادم حامل الهدية ، أن يتذوق برتقالة ، ويأكل عنقوداً من العنب المسكى ، ويلوك تينة ، حتى اذا ما وصل بيت الدين كانت السلتان قد خوتا ، وفى حالة يرثى لها ، الزمته الفراش عشرة أيام . وعادت السيدة صاحبة الخادم « النباتى » ، فجددت دعوتها . فأجابتها مارية ترازية من باب المجاملة وحب الاستطلاع . وقدمت قصرها القائم على مسافة ساعات قليلة من دير القمر .

فى ردهة فخمة الرياش ، تطل على حديقة تشرف على البحر ، يتوسطها بساط عجمى ، يستمد من أزهار الربيع ، أشد ألوانها خفوقاً . قعد شيخ درزى وقور ابيض اللحية — ادركت مارية ترازية من زى عمامته الخاص انها فى حضرة أحد العقال المتضلعين من الاسرار — وعلى جانبه سيدعظيم جليل ، يكتسى ثوباً زعفرانى اللون ، بخطوط قرمزية ، وسلطة مطرزة مقصبة ، تجمعها على صدره حلية من الذهب الرقيق ، يدخن فى جلسته الشرقية ، ويمر بيمناه على قصبة غليونه تنسل منه سحائب زرق ، ويعدد بيسراه سبحته العنبرية . وكان وجهه غريب الشحوب ، جامداً جميلا . وقد حزرت مارية ترازية من وراء اوضاع خفية ، انها تواجه امرأة برغم المظهر واللباس الرجالى .

وكان قد نهض أثناء ذلك الوقت ، لاستقبالها ، الدرزى والغريبة . وعدّدت صديقة مارية ترازية ، المجاملات ، فى تلك اللغة الشعرية ، حيث تترى على الافواه من تلقاء ذاتها : الصور والمشابهات . وما لبثت الاميرة البابلية ان

وصلت حبل الحديث ، مع العاقل . غير أنها تضايقت اذ شعرت بنظرات المرأة ذات السبحة ، الثاقبة ، تفحصها وتجوبها ، وتخترقها وتقيسها ، وتسحرها . ثم مالت هذه نحوها قائلة للفور بالعربية ، فى سهولة عظيمة ولباقه فى الالفاظ ، وفى لهجة أجنبية واضحة :

اذن أنت قادمة من بلدان الكلدان . حيث نبت العلم ، وادركت علوم التنجيم والفلك والسحر أقصى درجات الكمال . . . .

دهشت مارية ترازية لهذا الاجهار ، ولم تحر جواباً . فسألتها السيدة ، أهى متعمقة فى علم الفلك . فتمتمت ، ان الامير عبد الله الاسمر لم يكن مغرماً بهذا العلم ، وانه قد ردعها عن التنقيب عن كشف المستقبل الذى هو لله وحده . فلاحت اذ ذاك على سيماء مخاطبتها سحابة اخفاق طفيفة . واجهرت : —

— اننى حبست نفسى على درس صناعة النجوم ، وأدركت فيها وطراً عظيماً . ولما شاهدتك منذ هنيهة ،

تحادثين صديقى الجليل . اكتشفت دون عناء ، النجم الذى ولدت تحته . ويكفينى أن اخص بانتباه ، عيون وجبين المرء حتى اثبت ، دون مخافة الزلل ، النجم الذى يتحكم فى مصيره . ونجمك أنت : عطارد . . .

— انك على صواب ، فان منجماً كلدانياً ، وسليمان الحكيم ، العالم الدمشقى الكبير ، ذكرا لى هذا بالتمام . .

فصاحت الساحرة الحسناء دهشة ، وقد اشرق محياها :

اننى أعرفه تمام المعرفة ، ولم يشهد العالم ، بشراً أحذق منه فى هذا الفن الالهى . فانه لم يرنى قط ، ولكن أحد اصدقائى وصف له وجهى ، فأبان مزاياى وعثراتى . وأهليتى ونزغاتى ، بسداد مدهش ، مبيناً شامة لى فى مكانها المضبوط وذاكراً الندبة الصغيرة فى كتفى المتأتية عن عملية خراج . .

وكانت ماريه مأخوذة صامتة صمت الاعجاب ، فواصلت المنجمة حديثها :—

لقد برزنا جميعاً الى هذه الدنيا ، تحت نجم ، فحظنا معلق بطبيعته المؤاتية أو المناجزة ، فلم يتفق لفرد كره آخر ، لدى

اللقاء الاول؟ انه أمر فى غاية البساطة، فأن نجميهما متضادين. فالذى ولد مثلا تحت علامة الحمل، يفر من وجه ذلك المولود تحت علامة النمر . . . وهكذا كتب ! . . .

وبينما كانت هذه المرأة البيضاء العظيمة تتكلم، كان يخيل أن سيلا جارفاً، لايرحم، يبتلع المعارضات والاستصوابات . وأن لاشىء يستطيع صدّه . . . وأجبر الحضور المحاضرون، على استماع محاضرة متقنة، عن السماء، والسيارات، والنجوم . ودار البحث عن الميثولوجيا واللاهوت، والشعور البعدى (الهتف Télépathie) والارواح العلوية، والملائكة والأبالسة . وبعد برهة صمت اغتنمتها مارية ترازية، فصرحت عن شوقها لزيارة أوروبا، نور العالم، وموطن المدنية، حيث تسطع الفضائل المسيحية سطوعاً نقياً، وحيث لايمكن أن يكون القوم إلا اناساً صالحين، عادلين، كرماء . . .

ويحاً لها، ماذا جنت ؟ . . فأن المحاضرة التى لاينضب لها معين، استطردت بداهة بشقشقة مستجدة فى موضوع

يظهر أنها تدربت عليه . وأجابت فى قهقهة ، مفرقعة أصابعها الطويلة النحيلة :—

— لقد خدعك ذو مأرب . بلى أن اوربة ، كانت فيما مضى ، مملكة المسيح ، ومدرسة الفضيلة . أما اليوم فهذا تاريخ بال ، وخرافة قديمة . فقد غربت شمس أوروبة ، ولم يبق فى قلب ابنائها المنحطين ، ذرة شرارة من ايمان الجدود ، فالورع والعمل قد خلعهما عن عرشهما : الخداع ، الدسائس ، الأنانية الشهوانية ، والنفاق . فلن تواجهين سوى : الدعارة والفسق . فامكثى حيث أنت . فأنك تلقين الدين سالماً ، نقياً من الغايات الشخصية ، يحي القلوب النقية الساذجة . انى ولدت ونشأت فى أوربة ، وتنقلت كثيراً ، وخبرت اكثر الأوساط الاوروبية . وانك ستندمين ندماً جليلا ، يوم تنزحين عن هذه الجبال الوديعة ، نحو صراع وصخب شعوب الغرب . . . .

لو أن صاعقة انقضت عند اقدام مارية ترازيه ، المتخيلة أوروبا أرض الموعد . لما أذهلتها أشد من هذه . . . غير أن

رغبتها كانت أشجع من خوفها . وقد اضطرت بعدئذ أن تستوعب نبوءة المرأة الغريبة ، التى يخال أنها عرفت كل البلدان ، وكل القلوب . «وبعد هذا نهضت واستأذنت . وانصرفت فى حاشية كبيرة . وكان عند الباب فى انتظارها جواد فاره ، يقرض لجامه بفروغ صبر وشموخ . فوضعت قدمها فى ركابه ، وقفزت الي السرج كالرجال . ودفعته دفعاً جنونياً ، عدواً بين الجلاميد والمهاو ، تتقدم حشمها ، بتهور ومهارة ، يفخر بها المماليك لو أتوها . . . »

ولم تكد تختفى عن الابصار ، حتى هرعت مارية ترازية للفور تسائل مضيفتها عن اسم هذه الشخصية اللغيزاء . فكان الجواب : « أنها اللادى استرستانهب »

عوائد درزية

بعد ذلك عرضت على مارية ترازية صاحبتها ، زيارة كاهنة درزية ، تقيم على فج قريب . والنساء (الدرزيات) يحضرن جميع الطقوس المقامة فى « الخلوات » — وهى معابد صغيرة تقام فى أرباض القرى ، منصوبة على ذروات مطلة على الدروب — وفضلاً عن ذلك فبينهن مضطلعات بالاسرار ، ويكن عامة ، مسنات عالمات ، ويلقبن « بالعاقلات » . وكانت هذه التى قدمت عليها جالسة فى الفضاء تستنشق نسيم المساء ، وعلى مقربة منها مهد يتدلى من غصن ضخم ، راقد فيه طفل . وحوالى المكان يسرح فى المروج قطيع من الأغنام الدرزية الفريدة ، لها من الأليات ما يكون

ما آكل شهية ، وتكاد لفرط ربلها وثقلها ، تعوقها عن المسير ، حتى ان الرعاة ابتدعوا لها لتخفيف حملها ، شبه زحافة صغيرة ، يعلقونها بالاغنام ، وتسند اليها هذه الزائدة المكتنزة . وبهذه الآلة الفريدة تنتقل هذه من مرعى الى آخر .

ولم يكن الحديث فاتراً — وكانت الدرزية على جانب عظيم من الحذاقة ، لتتقى المسائل المذياعة ، كما كانت كذلك ، وهى ترهق مارية ترازية بلا انقطاع بالاستفهامات . وأعجبت هذه بتساهل هذا الشعب ، وارساله صغاره الى المدارس المارونية ، وصلاته فى الكنائس والجوامع على السواء ، حتى يلتبس على فلاحي لبنان الاجابة ، لو سئلوا ، هل الدروز نصارى أم مسلمين .

وتركت الامرأتان مارية ترازية مع الطفل ؛ فلم تفلت هذه دقيقة ، بل تناولت ابريقاً وعمدته ، إذ أقرت : « انى لم أضع فرصة قط ، أن أفعل ذلك ، اذا وجدت غفلة . . . » . . . إنه عمل صَبوىّ ، غير انه جرىء .

وأسعدها الحظ أن تشهد حفلات قران وما تم درزية لا تخلو من صبغات محلية ، وصفات فتانة . فالشاب اذا ما هدف للسادسة عشرة أو السابعة عشرة ، واكتملت المواثيق ،وعين الصداق ، ذهب مدججاً بسلاحه فى طلب خطيبته . فتدخل هذه مختمرة ، ويتقدم الطالب معيداً التماسه . وعند ذاك تجيبه : « اننى أقبل بك » وهى تمد اليه بخنجر مخيط فى « كيفية » . وهذا السلاح يستعمل اذا زاغت عن صراط الشرف ، أو ارتكبت أمراً ادا . ويلج السيد ليلة الدخلة ، غرفة الزفاف ، حيث تنتظره العروس الفتاة ، جامدة كالتمثال ، يكسوها مئزر أحمر موشى بالتبر ، من رأسها الى أخمص قدميها ، فيضع على رأسها الطرطور والصافى . ويكون الأهل اثناء ذلك الوقت « يرقصون السلاح » صارخين صراخاً مخيفاً ، ليطردوا أرواح النجس والعقم .

ولا يتخذ الدروز زوجات ، إلا فيما بينهم ، ومن امرأة واحدة . غير أن للزوج الحق فى طلاق امرأته ، وهذا فى

غاية السهولة ، إذ يكفيه دون سابق اخطار ، أن يلصق على جدار المنزل ورقة خط عليها ارادته . فاذا رأت أمر خلعها ، نادى هو بصوت عال : « لقد قرأت مصيرك » . وفى الحال تجهز حوائجها ، وتقفل عائدة الى منزل والدها ، تاركة أولادها . غير ان الخلع نادر بين الدروز . لأن الدرزى لا يمكنه قط أن يستعيد حليلته ؛ ويعاقب على الزناء بالموت . فان أقارب الآثمة ، هم المنفذون . إذ يرسل اليهم الخنجر مجرداً من قرابه ، فيعلمون أن العار قد ركب جيلهم . وينصب مجلس العيال ، ويدعى الزوج ليبين الشهود . وفى حالة تعذر اداء البينات ، يكتفى بقسم الزوج . . . ويمكن الرجم ؛ أى مأساة مروعة يمكن للانتقام وللنفور ابتداعها ! .. ويكون الجلاد ، إما الوالد وإما الاخوة . وليس من حادث رحمة معروفاً . ويكون الطرطور المضرج بالدماء ، علامة للزوج ، ان العدل جرى مجراه .

وحينما ينفق أحد الدروز ، يجتمع ذوو قرابته ، واخوانه ، وجيرانه ، حول الجثة يعددون دون تغرض ما آتيه

التى كانوا شهودها . فاذا كانت هذه الانباء لصالح المتوفى ، واستقام الاجماع ، انه لم يقتل ، ولم يسرق ، وانه كان عادلا شجاعاً ، مضيافاً لأخوانه ، تقمصت روحه جسد أحد السادات ؛ ويرفع العاقل الموجود عقيرته قائلا : « ليرحمك القادر على كل شيء » فيردد الحضور هـذا الدعاء . أما اذا كان الحكم عليه ، أو وجد بين الحضور ، ورثة منبوذين حاقدين — يصمت الحضور صمتاً طويلا . وتحل الروح فى جسد جمل أو كلب ، غير أن القوم الحذرين ، يأخذون عدتهم فيكونون مقدماً مجمعاً مختاراً لبعد مماتهم .[1]

---

(١) لم نشر بتعليق ما الى أى عقيدة أو عادة درزية ، لضيق المكان. فمن شاء شرحاً وافهاماً ، فعليه بمراجعة الكتب العديدة المصنفة بالعربيـة والافرنجية عن الدروز ، «وعند جهينة الخبر اليقين» وليراجع حتى « بالانكليزية» ، و « بورون » بالافرنسية . فهما أحدث الكتب وأوفاها .

« م . س . ك . »

٧

وجها الامير

كان قسم كامل ، من حدائق بيت الدين ، محبساً على صوافن الأمير ، وبها مايفوق الخمسين عداً من الاصائل النجائب المحفوظة الانساب بالتدقيق ، يؤكدون تناسلها من زرائب سليمان ، تجلجل قيودها فى صهيلها .

وكان يلذ لليدى استر ستانهوب ، أجسر النساء الضهياءات (الامازونات)[1] ، اللاتى شهدتهن مارية ترازية

---

(١) الامازونات Amazones ، ويعرفن فى العربية بالضهياءات ، نساء مترجلات محاربات ، ذكرن فى خرافات الاغريق . كن يسكن شواطئ البحر الاسود ، ويتدثرن بجلود الضوارى ، يلتحفن بها من الكتف الايسر تاركات الايمن عاريا . وهن شديدات البأس والبطش ، مغامرات حتى يقال انهن ملكن اقليم « تساليا » مقر الآلهة ، فى بلاد الاغريق . ومددن يد المعونة الى بلدة طراودة ، فى الحرب الشهيرة باسمها . وفى الميتولوجيا ، أن هيراكليس ، رمز القوة الجسمانية ، حاربهن وانتصر عليهن ، ليأت بمنطقة ملكتهن الى « اورسته » ملك بلدة « ميسين » ، وبالفعل اسر ملكتهن « هيبوليت » وأزوجها صديقه « تيسا » .

م . س . ك .

والتى « تثير تعجب العرب أنفسهم ، أحسن فرسان العالم ، عندما تعدو دون وجل فوق الشعاف الصخرية ، والروابى العمودية ، حيث تكفى زيغة واحدة أن تقذفها الى المهواة » أن تفتقد اصطبل بيت الدين ، وتمكث تدخن نرجيلتها ، صارفة أويقات بعد الظهر بطولها تفحص فحص خبير : الاصائل الصهب ، البندقية ، والحلس . وقد جمدت ذات يوم أمام فرس عربية ، بديعة الحسن ، ابتاعها بشير بأربعين كيساً . تقاسيمها خارقة ، وعنقها دقيق ، ورأسها صغير مستطيل ، وعرفها متلالىء ، وعيناها ثاقبتان ذكيتان ، كأنهما عينا بشر . فأهداها الامير بكل أناقة لجارته ، مصحباً إياها بشهادة ثابتة ناطقة بنبل أصلها ، وقدم لها معها اتانا ، تنتسل من تلك التى ركبها المسيح ، يوم دخوله اورشليم ، غير انها دون وثيقة تؤيدها .

واعتنى بالفرس أعظم اعتناء ، وبعد اشهر قليلة اخبرت سيدة جون ، الامير ، عن مولد مهرة فذة ، على ظهرها سمة وقب كرسم سرج تركى ، واعلنته أنها وقفت هذه الشاذة ،

لاستعمال « المسيا »[١] فقط ، فضحك البشير لهذه الواقعة ، فقد كان أولى جداً بالانجليزية الهائلة ، أن تدير سكان جهدها وذهنها المبتدع ، نحو المساخر الدينية ، عن أن تصوبه نحو الدسائس السياسية ، التى شعر الامير بمذاقها العلقم فيما بعد

ولم تحفظ مارية ترازية ، يا أسفا ، صورة دقيقة تماماً عن مقابلاتها ، لابنة أخت بت Pitt . فهى قد التقت معها حقيقة عند الكاهنة الدرزية ، مع أن الليدى استرستانهوب لم تشر الى اسمها قط فى مذكراتها . ولعل تأكيدات الاميرة البابلية ، ليست سوى مغالاة شرقية محضة عن زيارة فريدة ، حين تقول : — « اننا تبادلنا الوداد بعدئذ ، وقضيت ساعات عدّة فى رفقتها »[٢] .

---

(١) « المسيا » هنا هو المسيح المنتظر عند أهل الديانة الموسوية وليس هو السيد يسوع المسيح لاسمه السجود ، الذى نعتقد به والذى سيأتى فى اليوم الاخير لدينونة العالم ، لا لأنشاء دولة يهودية ومملكة صهيون .

م . س . ك .

(٢) من المحتمل أن تكون الاميرة ، قد قابلت الليدى ستانهوب مراراً قليلة . ولأمر ما أغفلت هذه ذكرها . والله أعلم ! م.س.ك.

الليدى استر ستانهوب

إلا أن تنزهات الليدى استرستانهوب فى حدائق بيت الدين ، خطل من البدء . كما ان قصة الفرس المهداة من بشير حديث خرافة . ومن المحتمل أن مارية ترازية ، وقد سكنت القصر فعلا من : ١٨٢٦ الى ١٨٣٢ م ، لم تقابل هنالك قط ساحرة جون ، التى كانت تناضل إذ ذاك الامير . وهذه كلماتها بالحرف : « انها لم تقابله غداة وفاة سليمان باشا » (١٨١٨ م) وقد أشار لويس دموازو Damoiseau ، الملحق ببعثة المسيو دى پورت ، لابتياع الجياد العربية ، قبل مقدم الاميرة ، الى وجود الشاذة ، إذ قدم جون ، وأرته الليدى استر ستانهب جيادها . فسجل : « اننى لحظت بنوع خاص مهرة لها عامان من العمر تقريباً ، ظهرها مقعر كسرج تركى ، وخاصرتاها غائرتان غوراً عميقاً . فهذه الشوائب هى فى عينى ميليدى Milady ، كمال . فقد حدثتنى أن هذه الفلوه ، تتسلسل من فرع يرتقى الى جياد زرائب سليمان ، وأن هذا النوع نادر الوجود جداً ، ونفيس القدر . والخلاصة

أن أمثال هذه المطية ، لا تستحق أن يحويها غير عظيم ، من ملوك الارض . وفى نيتها ارسالها الى ملك رومة . . »

أما من جهة صورة البشير ، حسبما رسمته الانجليزية الهائجة ، والبابليـة السليمة الطوية ، فانه كان كقولهم « ذو وجهين » فأنى نظر اليه ، شوهد ، إما شيطاناً وإما قديساً . وما الليدى استر ستانهوب ، ومارية ترازية ، قبل كل شىء ، سوى امرأتين ، ككل النساء ، أى متهورتان ، متأهبتان للخلط بين الرجال والاعمال . تعملان بحسب نزعات العواطف ، اكثر من الفكر ، وتعمان قبل المقابلة والحكم .

فاحداهما وقد أعمتها الكراهية ، كان بشير « وحشاً يثقل رقاب وأقدام الشيوخ بالاغلال ، ويفقأ الاعين ، يجدع الالسنة ، يدق صدور النساء بالكلابات ، يخمد أنفاسهن بين أطباق الرصاص ، ينكل بهن بالحديد المحمر ، يشنقهن من شعورهن . يمزق الرجال ، ويسحق رؤوسهم حتى تنفلق أصداغهم . واذا اتفق وأفلت والد من براثنه ، أحل صواعق سخيمته على البنين » أما الاخرى ، وقد أعماها عرفان

الجميل فكان « تابوت العهد فى الشرق ، يطفو على المياه العكرة الصخابة ، فى وسط التعصب الزنديق . . . . »

ان الليدى استر ستانهوب برغم اقامتها على أرض الامير ، قد ناصبته حرباً ساعرة . وهذا ما رمزت اليه مارية ترازية ، بقولها ، « انهما يعيشان فى ظروف ودية » فانها قضت عشرين حولاً تقاومه ، تسخر به ، تهاجمه ، تحقره ، تخرق حرمته ، وتقاوم أجناده . وهذه يقيناً أحد أهم البراهين الدالة على شجاعة ابنة أخت بت ، على مدى حياتها الباسلة ، وقد تخلى عنها أنسباؤها ، وخلانها ، وجافتها الحكومة الانجليزية ، والقناصل فى سورية ، وخانها خدمها . وبما أن حسها كان عالياً ، وغضبها نافذاً ، ونفوذها عظيما فى الجبل ، قلق البشير ، وسعى فى قذف هذه الجارة المزعجة خارج ملكه ، فنشر أمراً يمنع تحت طائلة الموت ، خدمة الانجليزية ، واستولى عنوة على قرية جون ، وحاصر منزلها . وأرسل القواد لمفاوضتها ، وحاول أن ينفها بواسطة سيافه حماده ذى الصيت المشؤوم فذهبت مساعيه جميعها أدراج الرياح

وفى هذه الآونة ، كانت مارية ترازية ، ترسم من بشير رسماً زاهراً ، رقيقاً ليناً ، شديد العذوبة ، وعظيم الحكمة . وتصور بيت الدين « كمدرسة الفضائل المسيحية » ولا تبخل فى البخور والعطور ؛ فهى تطرى دون رزانة ، كرمه ، وقرار ويسار البلاد اثناء حكمه الطويل المدى . فتصرخ : « وكان الموارنة . والمتاولة ، والمسلمين ، والدروز ، يعيشون كأخوة » ، وتعبر صامتة على الثورات المتصلة الحلقات ، والجرائم التى أدمت الجبل ، وعن جشع الأمير ، مضرب الأمثال ، فى استنزافه لبنان بالضرائب الباهظة ، وان الميل الى المساهلة يضل اكثر الطوايا رقة ، فان مارية ترازية ، قد أشارت الى قتل ابنىّ أخى الأمير ، بشكل أظهرته طبيعياً ، لازباً ، محتسباً ، فقالت : « بعدما سامح خيانات ابنىّ أخيه ، وتمرداتهما المتعددة اضطر حفظاً لسلامته ، وانقاذ قومه من مهاول الفوضى ، أن يعدمهما أرواحهما . . . » ثم أبانت من الامير ، وقد أقضه وخز الضمير ، أعظم تائب امام الصمدىّ ، صائحاً ، باكياً ،

مصلياً ، موقداً نيرانه ، ليلاً ونهاراً ، لقري الجائع ، باعثاً رواده فى كل الوادى لاغاثة الفقير .

وفى الحقيقة ، فالبشير لم يقتل ابنى أخيه ، بل أتى ما هو أدهى من القتل ؛ فبعد أن اقتلع لسانيهما ، وبخص أعينهما ، ألقاهما فى غياهب صرح جبيل ، حيث عاشا كرباً . وبدلاً من التوبة ، فالأمير لم يفعل سوى استهلال سلسلة المجازر[1]

(١) لم يكن مولى لبنان العظيم ظالما ، كما يشتم من هذه ، بل ان الظروف كانت تضطره الى الضرب على أيدى أعدائه ، كما يعلم كل من درس تاريخه ، ووقف على أحوال بلادنا . فقد كان عادلا ، وانما شديد السطوة على مناجزيه . وفيه شيء من القسوة .

م . س . ك .

٨

المنفى الاختيارى

يمكن تفسير حماسة مارية ترازيه الفائقة ، عن كل مايمس لبنان ، حينما يعلم أن إقامتها فى بيت الدين ، لم تكن سوى الواحة الفريدة فى بيداء حياتها .

وكانت تختمر فى سريرتها ، فى صمت وحرارة ، منذ أعوام ، هوية نزوحها الى اوروبة ، موطن الديانة المسيحية . ولم تكن ثم تحذيرات اللادى استرستانهوب ، ولا معارضات بشير الأبوية ، لتثنيها عن عزمها . وحدث فى عصر يوم من الايام ، أن ظهرت لها رؤيا ، وهى تقرأ فى كتاب للقديس الفونس دى ليجورى . Alphonse de Ligouri ، المطوّب حديثاً ، وخيل لها أن القديس يحبذ لها السفر . وعندها

قوّمت عزمها تقويماً باتاً . واتفق فى ذلك الحين أن المدعو جبرائيل خان، أحد اكبر تجار ديار بكر، وأحد اصدقاء والدها، كان عازماً على الاقلاع الى ديار اوروبة ، ومعه بعض الطلبة الاكليريكيين، يقصدون مدرسة نشر الدعوة (البروپاغندة) فى رومة . وعليه فماريه ترازية ترافقه فى رحلته . وبت فى كل شيء . وغادرت القصر الزاهر ، الذى لن تراه بعد ذلك . واستأذنت الاميرة حسنى جهان ، والأمير الشيخ الذى قال لها متأثراً جدّ التأثر : « اذكرى ، وأنت تغادرين لبنان ، انك تتركين خلفك ، صديقاً ومحامياً صدوقاً .

واذا أراد المولى ، ولم يوآت صحتك طقس الغرب ، فلا تترددى قط ، فى العودة الى بيت الدين، الذى سيكون لك دواماً بمثابة منزل والدك . . . » فبكت مارية ترازية . ومع ذلك ركبت ظهر البحر ، من بيروت فى أيلول عام ١٨٣٢ م مزودة هدايا غريبة كثيرة الى الاب الأقدس ، كدنان خمر معتقة ، وأربعة خرفان ، عظيمة الاليات ، مكتنزتها . وما كادت تنزح من صرح الجبل ، حتى هاجمتها المحن ،

والنكبات ، من جديد ، أهول جحيم من ذى قبل . ولم يهدىء صخب وازباد البحر المتوسط قط . فالعواصف كانت تتسابق من جميع أطراف الافق . فذاقت مارية ترازية الأمرين من الهدام (دوار البحر) طول رحلتها ، التى دامت ثلثة أشهر ، حتى خيل لها أنها ستزهق روحها ، وقد سمعت فى ذات يوم صراخاً حاداً ، والانتقاض يكاد يتحكم على ظهر السفينة . وقد نشأ هذا عن الهدايا المبعوثة للبابا . فقد مات خروف ، وأمر الربان بالقائه فى البحر . وتم ذلك فى شىء من التذمر . وما لبث أن نفق فى الغد خروف آخر غريب الديار . وهذه المرة شق البحارة عصا الطاعة ، وكان لهم بضعة أسابيع لم يتذوقوا فيها لحماً طريئاً . واستشاط الربان ، وسلت الخناجر من أغمادها ، حتى كادت الدماء تسيل ، لأجل هذا الخروف المتمرّغ على السطح ، رافعاً أضلافه المتوترة . وجرّت مارية ترازية نفسها جرّاً ، مكفهرة خائرة القوى ، الى موضع المأساة . ورجت البحارة أن يقذفوا الجثة الى البحر وينحروا

الخروفين الباقيين . وهذا ما كان بعد أن نضحوا الشواء بالنبيذ القبرصي المرسل الى قداسة البابا .

ونزلت في ليفورنو Livourne وقد خمدت حميا الوصول، فشعرت بوعثاء السفر ، وأصابها وصب شديد ، سمرها جملة شهور. ولم يكن في مقدرة جبرائيل انتظارها . وقد دعي فجأة بعد زمن قليل الى الشرق . واتهم في فتنة، ثم القي عليه القبض وأعدم . وبفراقه عاد الشقاء الى الاميرة المنكودة . وكانت مارية ترازية ، قد اكتنزت في بيت الدين ، ثروة عظيمة — من الرواتب والهدايا — وقد حوّلتها بأجمعها سبائكا من الذهب والفضة . فلو أبدلت هذه السبائك نقداً . وأودعتها مصرفاً ، لجلبت لها دخلا حسناً . غير انها لسلامة طويتها وعدم أهليتها ، وثقتها الجنونية بأمانة الغير ، كانت فريسة باردة للصيارفة العديمي الامانة ، والمقايضة المنخوبي الذمة . فقد صرخت : « ان حظي مروع ، واني أشبه مسافر الكتاب المقدس إذ وقعت في مغارة لصوص . » فأن أحد رجال الاعمال في ليفورنو ، وكان قد أوصى بها بنوع

خاص ، أعطاها جزءاً من عشرين من قيمة سبائك الفضة ، ولما أبدت استغرابها الساذج لهذه الصفقة الذرية ، قصّ عليها هذا المختلس قصصاً بارعة ، عن مقايضات بخسة مجلبة القنوط . ولم تدر الحقيقة إلا بعد عهد مديد .

ومكثت فى رومة أربع سنوات ، حاولت اثناءها دخول الاديار ، غير أن صحتها كانت تنحط تدريجياً ، مما اضطرها الى العدول عن هذا القصد . وكانت تحفظ فى غرفتها حقيبة كبيرة تحوى كل ثروتها . ففى ليلة ما لدى رجوعها ، وجدت الصندوق مسروقاً ، وقد ضاعت كل الحلى العائلية الثمينة : اللآلىء والالماس ، والنضّ ، والسبائك الابريزية . ولم يكن لمارية ترازية الجرأة الكافية لحث رجال الخفية الرومانيين ، الفاترى الهمة . ولم يقبض على السارق . فقنطت وقد أفلست تماماً . وودت العودة الى ربوع لبنان ، ولكن جزعها من البحر كان فائقاً .

وهبطت باريس ربيع ١٨٣٧ م . فدخلت فى كنف رئيس أساقفتها ، الذى قدمها للملكة . ولم يغفل عنها أمير

الدروز قط . بل كان يبعث اليها عاماً بعد عام مبلغاً عظيماً ، يكفل اعاشتها . لكن فى سنة ١٨٤٠ ، انقض خبر تنازل البشير كالصاعقة ، فبارحته للبنان والحجر على ممتلكاته ، فنفيه الى مالطه . وذعرت مارية ترازية ، حين عامت بخراب مدن الساحل بمدافع الاسطول الانجليزى . ثم جلاء ابراهيم باشا عن سورية ، فالاحتلال التركى ، فافلاس التاجر المؤمن فى بيروت لادارة البقية الباقية من أرزاقها . ولما ضاقت امامها جميع السبل ، ذاقت طعم البؤس ، بؤس البلاد الشمالية الاسود ، حيث ليس للبائس الشمس ، ولا القبة الزرقاء فوقه . وحاولت اعطاء بعض دروس فى العربية ، والكلدانية ، والفارسية . ولكن ليس ثمة عشاق لهذه اللغات الشرقية ، وقد فاز الدوق دورليان ، فى العثور على طالب يدفع لها أجراً فى الاسبوع ، مبلغ ستة فرنكات[1] والموت اكرم من أن تبسط أميرة من آل الاسمر ، يد

---

(١) أى نحو ثلاثة وعشرين قرشا مصريا . فتأمل!!! م . س . ك .

الاستجداء . فباعت مارية ترازية كل ملابسها المطرزة ، التى تذكرها بالماضى العذب . وامتنعت رويداً رويداً عن المآكل ، تكتفى بتبلغ كعك سميذ ، تسخنه على سراج يضىء بالغاز ، إذ ليس لديها مال تبتاع به فحماً .

وكان يوم من تلك الايام الشتوية المزمهرة ، إذ يخال أن السماء ذاتها تندف مع الثلج . فكانت مارية ترازية تصطك فى البستها الرقيقة للغاية ، وهى لم تتعود صبارة الطقس . تتسكع فى لجة هذا الجمع الباريسى ، المسرع ، العديم المبالاة . وكان لها ثلاثون ساعة ، لم تتبلغ فيها شيئاً ، وليس لديها درهم تشترى به قطعة خبز . والمنازل الشاهقة تبدو لها متراقصة امامها ، وهى تترنح تكاد تسقط . وكان عليها أن تدرك تاميذها . هنالك حيث تجد الدفء ، وتنال أجرها المستحق الدفع ، فيكون سلامها . . . هيا تشجعى ! ولكن الطالب ، مدعو الى حفلة راقصة ، فلا درس هذه الليلة . واعتذر لها آسفاً ! ودندنت كلماته فى اذنى مارية ترازية ، وها هى من جديد فى الطريق . . . . كفى حشمة كاذبة ،

وعزة نفس باطلة ، فهذه مسألة حياة أو موت . والكبرياء ترف الاغنياء . . . عبثاً تقدمت لسيدة ادعت انها صديقتها حتى الموت ، وعبثاً طرقت أبواباً كثيرة . وكان الشبح الصغير ، وقد ازداد نصباً وازداد تقوساً ، يزلج فى الطرقات وقد سطعت الأنوار الاولى . أوه ! كم كانت محقة تلك الانجليزية اليقظة ، التى فضلت الشرق المتوحش على أوروبا الفائضة مدنية ! . . . وكانت تلوح امامها رؤيا الرفاهيات ، وتذكر الولائم السالفة فى قصور بغداد ، وتستعرض ما كل البدو حول النيران — آه ، كم تود هى اليوم ، التلذذ بالتهام لحم الابل ، الممقوت فى سالف الزمن ! — وتشتم رائحة قطائف بيت الدين المعطرة ! . . . « وحينما ولجت غرفتى القيت بنفسى على الفراش ، أدعو الموت . فان آلام الجوع ومخازى تصرفاتى ، العديمة الجدوى ، قد حتفت معين الحياة فى روحى وجثمانى » . . . . وعند الصبح تخلت عن الذخيرة الأخيرة لديها ، وهى : علبة ذهبية تضم شظية من عود الصليب الحقيق . . . .

وقد التقت الاميرة فى السفارة الانجليزية ، بباريس ، بصفوة الوسط اللندنى ؛ فانها وان كانت تموت بؤساً ، كانت تعاشر أرقى الطبقات . وعرفتها الليدى غرانفيل ؛ والليدى كولى ، والليدى بنتنك Bentinck والسر جورج دنيس ، بالكونت دى مونستر Munster ورئيس الجمعية الملكية الاسيوية Royal Asiatic Society فوعدها بتقديمها الى الملكة فكتوريا . مؤكداً لها وجدان دروس اكثر جداً ، مما فى استطاعتها القاؤه ، وعاهد أيضاً على مفاوضة الحكومة العثمانية ، وطلب تعويض لها .

اخيراً ، ها هوذا فرديهتم لها . فاستبشرت ببصيص من الامل . . . . وهبطت لندن فى مايو سنة ١٨٤١ . وبينما كانت فرحة تتناول الغذاء مع الكولونيل بويد ، أحد رفقاء السفر ، أحضر غلام النزل جرائد الصبح . والقى الكولونيل نظرة عليها ، فتغيرت ملامحه . فقد انتحر بالامس الكونت دى مونستر . . . فهل كانت الاميرة تحمل معها النحس لكل من يرق لها ؟

ومن ثم لم تعش الا على افضال بعض ذوى الافئدة الرحيمة ، كالمستر هدسن جورنى ، الفارس بنسن ، المسز رتش ، أرملة قنصل انجلترا فى بغداد . ولم يتقدم اليها تاميذ واحد من التلاميذ التى وعدها بهم الكونت دى مونستر . ولكنها أكانت فى حالة تسمح لها بألقاء الدروس ؟ فهى عرضة لرجفة عصبية حادة ، تفقدها الرشد . وكانت تلبث أياماً بطولها مسمرة على فراشها . فعملت لتسلية نفسها بكتابة انباء بأسائها ، اهدتها الى الملكة الارملة . ونقلها الى الانجليزية ، الطابع كولبرن ، ونشرها عام ١٨٤٤ م . وكانت مارية ترازية تجر ذاتها فى بعض الايام ، حينما تلاشى الشمس الانجليزية الضباب ، الى حديقة الحيوانات فى ريجنتس پارك Regent's Park تسير فيها متثاقلة . أفليس مصيرها يماثل مصير تلك العجماوات الاسيرة ؟ . . ووقفت أمام جمل ، لا رحل عليه ولا زينة ، هزأة مجرداً . فرفعت صوتها بالعربية متحسرة عليه ، وعند ذلك ، اختلج البهيم ، وأدار صوبها عيناه الباسرتين المستسلمتين ، ودنت منها ظبيتان ،

بكسائيهما المخملين ، عرفتا فيما سلف المفاوز الطليقة والشمس الحارة ، حينما كانت الصحراء لهما مرتعاً رحيباً ، وأسندتا رأسيهما الجميلتين الى الشبائك الحديدية ، ناظرتين اليها فى حزن ، كقوم من البشر لا وطن لهم . . .

. . . . . .

أية عظة تستمد من يوميات الأميرة الأسمر ؟ على المرء ألاّ يقاوم أبداً حظه . فقد قدمت من ضفاف دجلة وأرض المشرق الحارة ، لتفقد نفسها ، بين شعب لندن العديم المبالاة .

وفى الوقت ذاته كانت ابنة أخت بت ، تسلم الروح ، فى دير خرب ، لأنها سلبت بسحر آسية ، وباحلام لا تتحقق . ويا لله من ميتة ! ونازعت على أسمال حصيرة ، وقضت كأحقر بنات قومها !

فكلتا الاثنتين ، إغترّتا بسراب البلاد النائية ، ولعلهما لو لم تزهدا فى كل شىء ، لتعيشا حياة أحلاميهما ، لكانت

أخرتاهما ، أقل إيلاماً . غير أن نفس النساء عويصة جداً ، وانه من المحتمل ، أن مارية ترازية ، فى مخدعها البائس البارد ، واللادى استر ستانهب ، في خذلانها العظيم ، لم تندما قط على ماضيهما : ذلك الماضى الذى رجتاه . . . . .

A.1941

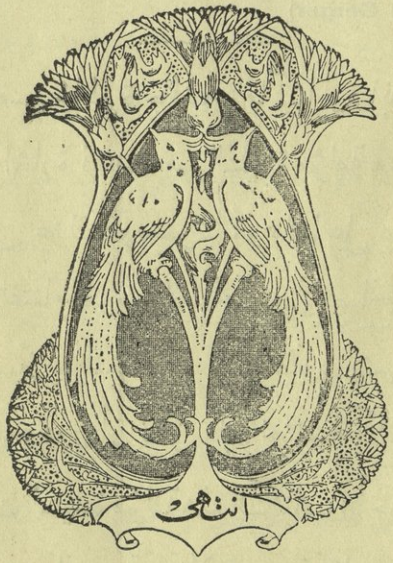

تعليق المعـــرّب

الفن العربي وأصله

« لم تكن أورشليم ولا رومية لترسلان بُناتهم الى سـوريا ، بل كان السوريون هم الذين يذهبون لتزويق العواصم الاخرى » اندره جيجر
(André Geiger)

في النفس خاطرة جائشة ، ما كنا نود ابداءها في هذا المقام ، لولا اشارة نشأت من السيدة مؤلفة هذا الكتاب ، أثارتنا من عزلتنا وصموتنا ، وحملتنا على عدم الارجاء ، فعزمنا على اغتنام الفرصة السانحة ، والافصاح عما يختلج به الفؤاد ، وتهـتز به المشاعر ، لأننا لانود نشر شيء به أمر يناجز أراؤنا ، دون أن نعلق عليه بخلاصة فكرنا .

وصفت السيدة مؤلفة هذا الكتاب ، أحد أروقة بيت الدين ، أنه عربي الصنعة . ولا عجب . فكل من شهد هذه التزاويق الهندسـية ، والتعاريج الجميلة ، والحبك البنائيـة ،

نعتها بالعربية ، جرياً وراء المتعارف. ولكن هذا خطأ محض لان ليس هنالك من « فن عربى » بالمعنى الصحيح . وانما هنالك فناً شرقياً ، منتزعاً من عبقرية أبناء سوريا ، أى ان الفن الذى نراه بادياً على العمارات القديمة ، في الشرق الادنى ، وفى الاقطار الناطقة بالضاد ، ليس الا فناً سورى الاصل ، تكيف نوعاً ما ، في كل قطر هاجر اليه ، طبقاً لنزعات عقلية أهله .

ان العرب لم يعرفوا قط البناء ، وما وجد فى بلادهم زمن الجاهلية ، يعود بأسره الى النصارى ، وأحياناً الى اليهود ، وجميع هؤلاء كانوا ينزحون اليها اما للتجارة ، واما لاعانة اخوانهم فى الدين ، كما تدل الآثار الباقية الى اليوم .

وقد قال ابن خلدون المؤرخ المغربي الشهير ، فى مقدمته ، الغنية عن التعريف :

«ان غاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب. وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ، ومناف له . فالحجر مثلاً ، انما حاجتهم اليه لنصبه أثافى للقدور . فينقلونه من المبانى ، ويخربونها عليه ، ويعدونه لذلك . والخشب أيضاً انما حاجتهم

اليه ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم، منافية للبناء ، الذى هو أصل العمران »[1] وعليه فكل الابنية التى وجدت زمن الجاهلية ، هى من عمل من أطلق عليهم العرب لقب « روم » جامعين فى هذه الكلمة ، السوريين والبيزنطيين على السواء دون تمييز ، كما تؤيد ذلك كتبهم .

فلننظر اذن كيف نشأ هذا الفن الجديد المعروف « بالعربى » . ومن اين منبعه ؟

ان الفن البيزنطى ليس الا نتيجة جمع بين فنين بارعين : الاغريقى والفارسى (والاخير مستوحى أيضاً من الاغريقى) ولم يقم بهذا الاستيلاد الا جهابذة الفن السوريين ، فهم الذين جمعوا هذين الفنين معاً ، وزادوا عليهما ، وزوقوهما ، فقدموا الى العالم ما دعى بعدئذ بالفن البيزنطى . ولما دخل العرب الشام ، واستقر لهم الامر ، هب السوريون أيضاً

(١) ويمثل هذا يصف « جوتيه » فى كتابه « عصور المغرب المظلمة » العربى بالعجز عن الابتكار ، وانه طفيلى يعيش على منتجات سواه فى سوريا ومصر والعراق وغيرها .

الى بناء مساجد لهم ، تحمل صبغة خاصة للفاتحين ، فألفوا بين فنهم القديم (البيزنطى) والفن الفارسى أيضاً ، وزادوا وحوروا ما شاؤوا ، حتى استقام بين أيديهم ، فن جديد ، عرف — خطأ ، كأخيه الفن السابق — بالفن العربى. وما لبث ان انتشر أثر الفتح الاسلامي ، فى جميع الاقطار التى امتد اليها ظل الاسلام ، وتطور فيها . ففى مصر اقتبس شيئاً من الفن القبطى (كجامع طولون) وفى المغرب والاندلس ، من الفن المغربى (كجامع طليطلة ، والحمراء) وفى فارس من الفن الفارسى (كجامع اصبهان) وفى الهند من الفن الهندى (كتاج محل) الخ . . . واصطبغ نوعاً ما بصبغة القطر الذى يعيش فيه. ولكنه لم يزل فى صميمه فناً سورياً ، يستق من حذاقة أبناء سورية ، أشد مظاهره خفوقاً .

ولكى لا نسرف فى هذه العجالة ، وتأييداً لقولنا السابق ، نقتصر على اقتباس قول سرفيه ، فى كتابه عن الاسلام: « ان المهندسين السوريين ، فى جمعهم للفنين الاغريقى والفارسى ، أدوا الى انشاء ما عرف بالفن البيزنطى ، فان

السورى أنتيمتوس الترالى ، Anthémios de Tralles ، هو الذى أنشأ رسوم كنيسة القديسة صوفيا (بين عام ٥٣٢ الى ٥٣٧) حيث يمكن للمرء مشاهدة جميع سمات الفن المنسوب الى العرب ، كالقباب ، مخرّمات الحجارة ، الفسيفساء ، القاشانى الملون ، والوشى النباتى . »

أما لامنس فيقول فى تاريخه عن سوريا : «ان المهندس السورى ، قد التقى جانباً استعمال الملاط العديم الاناقة ، منضداً حجارته المتقنة النحت على بعضها دون شىء ، ملقياً عبء ثبات عماراته ، على نواميس الموازنة وحدها . فأبدل آجر الرومان والبيزنطيين ، بالحجارة . وأقام الكنائس ذات القباب ، وغمر البلاد بالكتدرائيات البهية التي تثير بقاياها المهيبة تعجب الاثريين ، والتى يستوحيها بناة الكنائس الرومانية . . . . . وبذلك كان معلماً ، وموطئاً للفن العربى اللاحق ، الذى هو أيضاً يرجع الى الفنانين السوريين ، الذين أقاموا فى القرن الاول للهجرة ، قصر « مُشَتَّى » المدهش ، بواجهته الهائلة ، وجوامع القدس ودمشق الفخمة . . . . »

ويجيب « جاية » فى فاتحة كتابه « الفن العربى » انه يأسف أن يصف كتابه بهذا الاسم ، فانه لم يجد اسماً أفرغ منه قط ؛ لأن « العربى لم يكن أبداً فناناً . . . . » . . .

قد يندهش القارىء الساذج ، وقد ينقم ذو الغاية . ولكن الحقيقة تجبرنا على عدم المحاباة ، وقد جئنا بأسطرنا هذه لنبين الغى من الرشاد . ولو أردنا ايراد الشواهد التى بين أيدينا فقط ، لاحتجنا الى مجلد مستقل بذاته . . . ولعل فى هـذا تنبيهاً لقوم يحلمون !

فنحن السوريون ، يجب أن نعتز ونفاخر بهذا الفن ، وندعوه « بالفن السوري » لأن منبعه كان صنيعة أيادينا ، ولو كره المكابرون ! بدلاً من أن نخلعه على سوانا ، تحفة لألأة ، مهما كانت الصلة التى تربطنا واياهم (لأن السوريين ليسوا عرباً قط ، بل هم شعب قائم بنفسه ، يستمد أرومته من الفينيقيين والاراميين وغيرهم ، الخ . . مما نجتزىء عن ذكره اليوم) . . وبذلك نكون قد استردنا حقوقاً لنا مهضومة ، وما علينا فيها لوم ولا تثريب بل كل فخر وكل حق !؟

م . س . كمبد

فهـــرست

مقدمة المعرب ٣

فاتحة الكتاب ١٠

المنشأ على ضفاف دجلة ٣٣

من الموصل الى بيت الدين ٤٩

فى القصر الجبلى ٥٥

لقاء الليدى استرستانهب ٦٦

عوائد درزية ٧٣

وجها الأمير ٧٨

المنفى الاختيارى ٨٦

تعليق المعرّب ٩٩

DATE DUE

1 FEB 1974

JAFET LIB.
11 MAY 2009
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
-7 DEC 2009
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
-1 NOV 2006
Circulation Dept. 4

بوردو ،بول هنرى
اميرة بابلية لدى الدروز
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031945

843
B721a Ak